

دكتور

سعيد اللاوندي

مدير تحرير الأهرام

مدير مركز الدراسات الأورومتوسطية

مدير تحرير لوموند ديبلوماتيك

خبير في العلاقات السياسية الدولية

دبلوماسية العلاقات العامة

الرأي العام جسد مارد وعقل طفل

مكتبة جزيرة الورد

دبلوماسية العلاقات العامة

الرأي العام: جسد مارد

وعقل طفل!

دكتور

سعيد اللاوندي

- مدير تحرير الأهرام
- **مدير مركز الدراسات الأورومتوسطية**
- مدير تحرير لوموند ديبلوماتيك
- **خبير فى العلاقات السياسية الدولية**



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اسـم الكتاب : دبلوماسية العلاقات العامة
المـؤلف : د. سعيد اللاوندي
رقـم الإيداع :
الترقيم الدولي:



الطبعة الأولى ٢٠١٦

إهــداء

إلى طه حسين عميد الأدب العربى صاحب الإهداء الشهير:
«إلى الذين لا يعملون.. ويفيدهم كثيراً أن يعمل الآخرون»

د. سعيد اللاودى

مقدمة

الرأى العام. صناعة أم تصنيع؟!

نعم «الرأى العام» هذا البحر الهادر من الكتل البشـــرية يمكن التحكم فيه، وتشـكيل توجهاته وصـبه في قوالب معدة سـلفاً. أى يمكن «تصنيعه بمواصفات محددة. كحال أى سلعة قبل عرضها فى الأسواق: وهناك تقنيات شتي يبرع فى استخدامها واستئناسها رجال السياسـة فى العالم بحيث تضـمن له (رأياً عاما) سـلسـاً ومطيعاً وجاهزاً لتصديق كل ما يقال من أكاذيب، وأضاليل.

لســت أنكر أن هذه العبارة النظرية الأكاديمية التى يرددها دائماً علماء الإعلام والرأى العام فى كتاباتهم قفزت إلي ذهنى عندما تابعت كغيرى تفاصـــيل الفضـــيحة التى فجرتها قبل فترة لوس أنجلوس تايمز حول قيام الجيش الأمريكي في العراق مثلاً بدفع أموال ســرية إلى صـــحف عراقية مقابل نشـــر مقالات كتبها عسكريون لتلميع صورة الاحتلال وإظهار الإيجابيات والتحولات الديموقراطية التى أحدثها فى الساحة العراقية

والهدف الأبعد بالطبع هو إخفاء المجازر (والمآســـى) التى يتعرض لها الشعب العراقى على أيدى جنود الاحتلال!

وللإنصاف يجب أن نذكر أن البيت الأبيض قد أبدى انزعاجه لهذا الأمر، واســتدعى مســؤولين فى وزارة الدفاع (البنتاجون) لاسـتجوابهم واسـتجلاء الحقيقة لأنه اعتبر هذه الواقعة - في حال ثبوتها - طعنة في ظهر أمريكا التي تبدو متناقضـــة، فهى تتحدث عن ريادتها فى الدفاع عن حرية الرأى والصحافة ثم - فى الوقت ذاته - تسـمح لعسـكرييها بالتدخل لتضـليل الرأى العام وتزييف الحقائق وتقديم الأكاذيب على أنها الحق الذى لا يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه!.

.. وليس مهماً أن يسـفر هذا الاسـتجواب عن شـئ (أو لا يسـفر)، لكن الثابت أن التحكم فى الرأى العام هو لعبة قديمة – جديدة فمن يصدق أن تفجيرات يوجوسلافيا مثلاً التى حصدت آلاف الضحايا جاءت باسم الحرية والعدالة وخدمة القانون!.

.. ومن منا يعرف – ولو جزءاً يسيراً - مما حدث أثناء الحرب الأمريكية على أفغانستان.. فالثابت عملاً أن احتكار أمريكا للساحة الإعلامية إبان هذه الحرب دفن كل الحقائق، ولم نعرف إلا ما أرادت أمريكا أن نعرفه عن هذه الحرب!.

..وها هو (وولتر ساكسون) مالك شبكة C.N.N يذكر أنه طلب من صحفييه عدم التركيز على أخبار الضحايا المدنيين أثناء اندلاع الحرب الأفغانية وطالبهم بإبراز (أو فبركة) الأخبار التى توضح أن حكومة طالبان هى المسؤولة عن هذه الحرب وأوصى بأن ينشر مع أى صورة عن أفغانستان أو باكستان تعليق يقول: أن طالبان تؤوى إرهابيين مسؤولين عن موت أكثر من خمسة آلاف شخص! إنها تقنية التزييف التى تُفشى معلومات مغلوطة ومتناقضة بطريقة مُغلّقة تخفى بين ثناياها – بل تضيع تماماً – المعلومات الصحيحة..

..والشىء نفسه حدث حول تدخل حلف الناتو فى البلقان والذى تم تصويره – إعلاميا – على أنه المنقذ بينما الحقيقة الغائبة هى أن الناتو – نفسه – هو الذى ارتكب جريمة الجرائم فى البلقان: «التطهير العراقى!!.

.. وكم كان صائباً وزير خارجية ألمانيا السابق (يوشكا فيشر) عندما قال فى صحوة ضمير نادرة: عندما سنعرف الحقيقة، سوف نندهش كثيرا أنها أشد قسوة مما يمكننا تحمله.

.. والحق أن الرأى العام – على ضخامته – وعظيم تأثيره إلا أنه يكاد يكون طفلا ساذجا يمكن التغرير به وتضليله على أيدى شركات كبرى تتخصص في هذا الشئ (لا فى غيره) فيذكر كتاب فرنسى بعنوان: أسلحة التضليل الشامل أن هناك شركات للعلاقات العامة وظيفتها أن تبيع الوهم للمواطنين .. وبعضها تربطها عقود بأجهزة المخابرات الأمريكية تخول لها حق توزيع الأخبار المغلوطة عن الحرب وتصوير أفلام تليفزيونية دعائية تصوغها وتخدم أهدافها.. حدث هذا فى أفغانستان عندما احتكرت إحدى الشركات بث أخبار الحرب دون منازع، كما حدث فى العراق.. وكلنا يذكر أن مشهد إسقاط تمثال صدام حسين فى قلب بغداد كان مسرحية من إعداد (وإخراج) إحدى هذه الشركات التى قامت بتعبئة أكثر من ١٠٠ شخص لكى يكونوا جاهزين للتصفيق وكان من بينهم -ويا للعجب- أناس يحملون عضوية مجلس الحكم الانتقالى فى العراق!!

.. النتيجة المؤلمة فى كل هذا أن الرأى العام هو الضحية دائماً حيث تنفق مئات الملايين من الدولارات لإحكام القبضة عليه..

وفى حقيقة الأمر، إن ما نسمعه عن «وقائع» شراء صحف وكتاب (من كل لون وصنف) بغرض توجيه الرأى العام وحشو (رأسه) بأفكار ورؤى بعينها هو أمر بات لكثرة تكراره مألوفاً ولا يدعو للدهشة أو الغرابة على الرغم من أنه يدخل فى ضمن ما يسميه ناعوم تشوميسكى عمليات النصب المالى والمعنوى.

فقديما عندما استقر في عقل زعيم النازية (هتلر) أن ألمانيا لن تتغلب على مشاكلها الاقتصادية إلا بغزو الدول القريبة منها لم يتورع عن اختلاف أكذوبة أن بولندا اعتدت على ألمانيا وكان على وسائل الدعاية التابعة له أن تتكفل بالباقى من ترويج وإلحاح، وتزييف وتقديم الأكاذيب على أنها حقائق.

وحال دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى السابق يدعو للتساؤل فلقد اعترف بأنه أسس مكتباً يشرف عليه بنفسه لا مهمة له سوى تزييف الحقائق وبثها على الكوكب الأرضى قاطبة. هذه الوحدة تعرف باسم (وحدة التأثير الاستراتيجى) ميزانيتها مئات الملايين من الدولارات وتتعاون مع جهاز الـ C.I.A وتتعامل مع صحفيين وكتاب فى الشرق الأوسط فتعطيهم رسائل صحفية وتعليقات وتمدهم بالمعلومات التى تتوافق مع أمنيات ورغبات الإدارة الأمريكية وتفضيل الخيارات الخاصة بالسياسة الأمريكية في بلادهم مقابل منح دراسية أو رواتب شهرية تصل إليهم بطرق خفية حتى لا يفتضح أمرهم وكذلك لضمان ولائهم وانحيازهم التام لكل الطروحات الأمريكية وتقوم هذه الوحدة التأثير الاستراتيجي «بتسريب معلومات تبتلعها الصحافة الأمريكية والعالمية لخدمة المصالح الأمريكية..

.. وليس خافيا على الكبير والصغير أن المستهدف أولا وأخيرا هو الرأى العام المفترى عليه (فى هذه الحالة).

.. ولكى تكتمل رؤيتنا حول حالات التضليل التى يتعرض لها الرأى العام تجدر الإشارة فى عجالة إلى اعتراف آخر (زلزل أصحاب دراسات الرأى العام في العالم).. وصاحبه هو الشاب الأمريكى بنجامين فاندر فورد الذى قال إنه (فبرك) عملية قطع رأسه ووزعها (فيديو) من خلال شبكة الإنترنت .. ولأنه بارع فى برمجة ألعاب الكمبيوتر فلقد استخدم أحدث التقنيات وصور نفسه جالساً على كرسى فى غرفة مظلمة ويداه خلف ظهره وهو يرتعد ويهتز للأمام والخلف وكأنه رهينة مذعورة..

أخيراً، وبعد هذه الاعترافات الموجعة هل يجد المواطن العادى متسعا من الوقت وسط انشغالا ته الحياتية المتلاحقة ليسأل نفسه: هل كل ما يبلغه من أنباء «صحيحاً» وهل كل ما يشاهده عبر الشاشات حقائق لا أكاذيب؟!

د. سعيد اللاوندى

الفصل الأول: أسلحة التضليل الشامل

«ثمة قناعة راسخة في عقول رجال السياسة فى أمريكا وأوروبا مؤداها التالى: أن الرأى يمكن صناعته، كما يصنع الزبادى والملابس! وبالتالي لا يجب الخوف من الجماهير، لأنها- فى النهاية- سوف تلتهم كل ما يقدم إليها من معلومات وحقائق.. والمهم هو كيف ومتى يقدم ذلك؟

ثم إنه لا توجد حقائق مطلقة، لأن «المعلومة» التي تقدمها إحدى القنوات التليفزيونية لن تكون- بالضرورة- هى ذاتها التى تقدمها صحيفة ما في صدر صفحتها الأولي، رغم أن مفردات وتفاصيل المعلومة لا اختلاف عليها، لكن تقديم جزء عن آخر، أو طمس رقم دون غيره، أو إبراز عنصر بعينه من عناصر المعلومة.. كل ذلك يجعلنا أمام أكثر من وجه للحقيقة.. وهنا «مربط الفرس» بالنسبة لعملية«الأخبار» أو«الإعلام» فهذا الطفل«ديرن» الكوسوفى الذى لا يزيد عمره على عشر سنوات عندما قدمته القناة الأولى بالتلفزيون الفرنسى ليتحدث عن مأساته.. تعاطف الكثيرون معه، لأنه شاهد بعينه مقتل أمه وأخواته البنات الثلاث..

وكانت دموعه مؤثرة للغاية.. أما عندما تحدثت عنه الصحف، فتاهت الصورة الحية للحقيقة وسط سجل الأخبار والأرقام، والفتوحات التى قامت بها قوات حلف شمال الأطلنطى!

إذن محور القضية الإعلامية فى تعاطيها مع الرأى العام يدور حول عوامل كثيرة مكانية وزمانية ونفسية يتحكم فيها جميعا المصدر الذي يغش المعلومة والذى يكون قادرا- والحالة هذه- على توجيه«الرأى» فى الاتجاه الذى يريد.

والثابت عملا في كل الأحوال أن مشـــعلى الحروب يضـــعون مســألة التعاطى مع الرأى العام على رأس الأجندة العسكرية والمثال الصـارخ على ذلك قضـية التطهير العرقى فى كوسوفو كان لابد من توظيفها لتأليب الرأى العام على النظم السـياسـية الحاكمة فى منطقة البلقان بهدف تهيئة الرأى العام لقبول تدخل قوات حلف الناتو.(بتلك القوات التى ثبت أنها شاركت فى عملية التطهير العرقى لاحقا!) لكن كان لابد من القيام بنوع من الدعاية (بروبا جاندا) عبر كافة وســـائل الميديا (مرئية مســـمو عة ومكتوبة)..ومما روجته أن ســـلوبودان ميلوســيفيتش يتحمل وحده المسـؤولية عن الحرب لأنه رفض توقيع اتفاقية رامبوييه.. لكن هذه الدعاية أغفلت ما نســب للســيدة مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية الســابقة من أنها كانت تبذل جهودا منظمة من أجل عدم استتباب الأمن في هذه المنطقة من العالم، وعملت على الحيلولة دون إنجاح أى مؤتمر للسـلام في بلجراد.. إذن كان لابد من الإمساك بدفة الرأى العام لتبرير تدخل حلف الناتو. وفى هذا الصـــدد يتم التلاعب بأرقام الضـحايا عن عمد..أما اسـتطلاعات الرأى فكانت الســـاحة الأكبر لمثل هذه الألاعيب.. ففى عام ١٩٩٩ أجرت صحيفة لوباريزيان الفرنسية استطلاعا كشف عن أن ٤٦% من الفرنســيين (فى مقابل ٤٠%) لم يوافقوا على التفجيرات الجوية التى قامت بها قوات حلف الناتو ضد صربيا.

وفى اليوم التالى لفتت صـــحيفة جورنال دى ديمانش النظر إلى آخر كشـف عن أن ٥٧% من الفرنسـيين (فى مقابل ٣٠%) وافقوا على التدخل العسكرى للناتو فى يوجوسلافيا.

ومعلوم أن الاختلاف هنـا لا يتعلق بواقعـة «التفجيرات» أو «التدخل» دائما باســتخدام اللفظين، ففى اســتطلاع لوباريزيان كانت كلمة تفجيرات قوية وتســـتدعى فى الذهن القتل، والدمار، والدماء ومن ثم جاءت النتيجة بالرفض.

أما فى الحالة الثانية (استطلاع جورنال دى ديمانش) فالكلمة المستخدمة هى (تدخل).. ولأنها خفيفة، ومتداولة، ولا تستدعي إلي الأذهان مباشرة أى شكل من أشكال العنف جاءت النتيجة بالقبول..

مقابلة للسيدة كريستين أوكرانت (ألمع مقدمى النشرة الإخبارية فى التلفزيون الفرنسى) أجرتها معها إحدى القنوات الأمريكية للتعرف على اتجاهات الرأى العام فى فرنسا وسألتها عن رد فعل الرأى العام الفرنسى إزاء عملية تدخل حلف الناتو فى كوسوفو، فأجابت بأن الشعب الفرنسى موافق على ذلك. وعندما سألتها عن مدى مصداقية حلف الناتو لدى الشعب الفرنسى أجابت السيدة أوكرانت أن الناتو هو تحالف بين ديمقراطيات، والأمر هنا يتعلق بحرب الديمقراطية ضد الطغيان والديكتاتورية..(أى أن الرأى العام فى فرنسا يثق فى حلف الناتو).

وثمة تعريفات محددة لعدة مصطلحات أو مفاهيم مثل التطهير العراقي والدعاية، والتزييف، المصطلح الأول يعنى عملية إبعاد منظمة لجماعة إنسانية قومية أو عرقية أو دينية. أو الدعاية فهى كل فعل يُمارس على الرأى العام بهدف دفعه إلى اقتسام أفكار أو قيم بعينها.. (وهى تعتمد على الميديا بشكل أساسى).

أما التزييف فالمقصود به إنه«تقنية» من نوع ما وظيفتها إفشاء معلومات مغلوطة ومتناقضة بطريقة مغلقة تختفى بين ثناياها المعلومات الصحيحة.

وهناك عبارة ذات دلالة منسوبة إلى يوشكا فيشر وزير الخارجية الألمانى السابق ويقول فيها:

عندما سنعرف الحقيقة سوف نندهش كثيرا لأنها ستكون أشد قسوة مما يمكننا تحمله!

وهى عبارة تشير بقوة إلى أن كل ما يذاع أو يفشى من أخبار عن الأحداث التى يموج بها العالم من حولنا، ليست فى الأغلب دقيقة أو صحيحة والسبب هو أن المتلاعبين بالعقول كثر، وخطط ليّ عنق الحقائق لا تنتهى فضلاً عن أن لكل رجل سياسى هدفه ومبتغاة إذا ما أضطر إلى أن يدلى برأيه عن واقعة أو حدث بعينه.. فالرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون تحدث بامتعاض قليل عن عملية التطهير العرقى التى مورست فى كوسوفو أما ليونيل جوسبان رئيس الحكومة الفرنسية السابق فقد رأى شيئاً آخر عندما قال: إن تفجيرات يوجوسلافيا على مدى ٨٧ يوما جاءت باسم الحرية والعدالة، ولخدمة القانون!!

كما جاءت تعليقات صحفية تنتقل بالقضية إلى قول آخر عندما ذكرت أن كوسوفو التى شهدت تطهيرا عرقيا لم يكن ينقصها سوى إنشاء حجرات للغاز لقتل شعبها عن بكرة أبيه؟

وليس خافيا أن هذه التعليقات ترى أن ميلوسيفيتش هو بشكل أو بآخر صورة أخرى من هتلر مخترع الهولوكوست فى التاريخ الإنسانى.

وثمة من يتحدث عن سيطرة رؤى من يمتلكون وسائل الميديا على توجهاتها ورسائلها الإعلامية فيذكر أن وولترا ساكسون مالك شبكة CNN طلب من صحفييه عدم التركيز على أخبار الضحايا المدنيين أثناء اندلاع الحرب الأفغانية، وطالبهم بإبراز (أو فبركة) الأخبار التى توضح أن حكومة طالبان هى المسؤولة عن هذه الحروب وأوصى بأن يعقب أى صورة عن أفغانستان أو باكستان تعليق يقول أن طالبان يؤون إرهابيين مسؤولين عن موت أكثر من خمسة آلاف شخص!

ومعروف أن احتكار الميديا الأمريكية أفغانستان، أدى إلى دفن كل الحقائق.. لأن ما عرفناه عن هذه الحرب هو فقط ما أرادت الولايات المتحدة أن نعرفه!

- **تعتيم إعلامى:**

واستمراراً لمسلسل التعتيم الإعلامى المتعمد من قبل وسائل الميديا (على اختلاف أنواعها) يذكر أن سؤالا طرح على رئيس تحرير إحدى النشرات الإخبارية المهمة فى التلفزيون الفرنسى عن سبب غياب الأخبار الدولية فى النشرة فأجاب أن نشرتنا تركز على أخبار فرنسا لأننا تليفزيون فرنسى بالأساس. ومن أراد أن يعرف أخبار فنزويلا. أو السودان فعليه أن يشاهد التليفزيون الفنزويلى أو الأفريقى!!

بالطبع الإجابة ليست مقنعة، لكنها لعبة احتكار المعلومة والتلاعب بها (ضيقا واتساعا) بحسب المصلحة التى يقررها مالك (أو مدير) الوسيلة الإعلامية.

ففى صحيفة لوموند الفرنسية الصادرة فى ٢٥ مارس عام ٢٠٠٠ عالجت ست عشرة صفحة الأوضاع في كوسوفو تحت عنوان: «كوسوفو.. عام بعد الحرب» تضمنت مقابلات عديدة مع قادة الحرب، والمعلقين والمحللين لكن لم نجد سطرا واحدا يحاول أن يقترب من المعالجة أو التغطية الصحفية التي جرت أثناء الحرب والتى كانت تتسم بالتعتيم والتصنيف وعدم نشر غير المسموح بنشره. ويقول البعض: لقد تبين لاحقا أنها كانت معالجة سيئة ومحشوة بكثير من الأكاذيب لأن الأمر لم يكن يتعلق بجرائم بسيطة، وإنما بمذابح وإبادة عرقية تقشعر منها أبدان البشر، وترتج لها دساتير حقوق الإنسان ارتجاجا!

وفى كتابا بعنوان«صناعة الرأى العام» يناقش مؤلفاه ناعوم تشوميسكى وإدوارد هيرمان الأسس النظرية التى تحكم لعبة الرأى العام، فيطرحان أسئلة مثل: من الذى يخلق (أو يحدد) أعداء الشعب- إلى الشعب؟ ويصدر القرارات بإشعال الحروب وكيف تتمكن المخيلة الجماعية من الحكم على الضحايا بأنهم يستحقون الموت أو لا يستحقون؟.

وما هو الدور الذى تلعبه المؤسسات السياسية وجماعات الضغط والشركات متعددة الجنسيات فى تشكيل أو توجيه الرأى العام؟

وفى نفس الاتجاه الخاص بطرح التســـاؤلات يدأب المؤلفان على تقديم قراءة نقدية للأحداث تشتمل- ضمن ما تشتمل- على إجابات مســـتفيضـــة حول إشــــكالية الدعاية والدور الذى يلعبه الإعلام فى الانتخابات الشرعية).. ويتوقف الكتاب أمام تفاصيل الحرب الهندوصـــينية (فيتنام ولاوس وكمبوديا) ليخلص فى النهاية إلى أنها كانت أشــبه بـــــ (كوكتيل حرب) فهي حرب عسـكرية ونفسـية وإعلامية معا. وتهدف جميعا إلى خدمة الدولة المعتدية أو المحتلة، ولا تتورع عن تزييف الحقائق لكن بعد أن تتلاعب بالجماهير وتبث إليها- إعلاميا- ما يجعلها تعتقد أن هذه الحرب، ضرورية، وحيوية، ومشروعة، على أنها ليست كذلك لا من قريب أو بعيد.

● لعبة قديمة- جديدة:

ويؤكد تشــوميســكى أن توظيف الإعلام بغرض التحكم فى الرأى العام هى لعبة قديمة- جديدة فها هو هتلر (فى عصــــره) برع فيها وعندما اســـتقر تفكيره على أن ألمانيا لن تتغلب على مشاكلها الاقتصادية إلا بغزو الدول القريبة منها خصوصا بولندا، قام بترويج معلومات تفيد بأن بولندا، اعتدت على ألمانيا لكى يبرر خطته الرامية إلى ضـــربها واحتلالها.. وبالفعل فى عام ١٩٣٩ خطب هتلر فى ١٤ شـخصـا من كبار مسـاعديه وقادته العسكريين وقال: إذا أردنا أن نحل مشاكلنا الاقتصادية في ألمانيا فعلينا أن نمد فضـــاءنا الحيوى إلى أنحاء أوروبا.. ومن ثم يتعين أن نغزو أولا أقرب الدول لنقل ثرواتها إلينا التى كانت متاحة فى ذلك العصــــر دأبت الدعاية الهتلرية إلى التلاعب فى الرأى العام لترويج هذه الفكرة أو الخطة.

ويشـــير إلى أنهم في العشــرينيات من القرن الماضـــي كانوا يتحدثون عن صـناعة الشعور أو الإحساس والذى تلعب الدعاية فيه دورا مميزا وهو ما جعل الدعاية لاحقا أداة لحكم الشـــعوب والمعروف أن الميديا هى شـكل من الأشـكال«دعاية» ويسـهب البعض في الحديث عن أحداث مثل أحداث نيكاراجوا فى عام ١٩٨٨، التى انقســمت حولها النخبة المثقفة والواعية، وكان السؤال: هل تؤيد التدخل الأمريكى العسكرى أم تدينه وترفضه؟ ولان الميديا الأمريكية كانت بارعة فى عملها، طال طرح السؤال، وتعمقت الخلافات خصوصا عندما تلاعبت بالرأى العام وذكرت أن الهدف هو تكريس الديمقراطية في نيكاراجوا (وهى ذات الحجة التى استخدمتها أمريكا لاحتلال العراق بعد أكثر من خمسة عشر عاما!)

وبدأت الأعمدة الصـــحفية في نيكاراجوا تناقش قضـــية دور أمريكـا في دمقرطـة بلادهم..كمـا تقررت ذات الواقعـة في جواتيمالا فالهدف العسـكرى يختفى دائما وراء سـتار ضـخم من المقولات والشعارات التى ترددها وسائل الإعلام.

● المتلاعبون بالعقول:

ولعل أصـــدق ما صـــدر فى المكتبات العالمية ويمس بشـــكل مباشر قضية المتلاعبين بالرأى العام هو كتاب آخر بعنوان:«أسلحة الخداع الشامل» ولاشك أن هذا التشابه أو التجانس مع أسلحة الدمار الشامل مقصود بذكاء« وهو- في كل الأحوال- يفضح تورط شركات الدعاية والإعلان والإعلام فى الحروب التي تخطط لها الســياســة الخارجية الأمريكية، ومنها الحرب العراقية الأمريكية الأخيرة.

ويذكر الكتاب أن هناك شــركات متخصـــصـــة فى العلاقات العامة قامت بترويج الوهم على انه حقيقة وكانت قد وقعت مع جهاز ال C.I.A عقدا يخول لها حق توزيع الأخبار المغلوطة عن الحرب وتصوير أفلام تلفزيونية دعائية تصوغها وتخدم أهدافها

وكانت الشـــركة نفســـها وقعت عقدا- قبل ذلك مع البنتاجون قبل الإطاحة بنظام طالبان فى أفغانستان لتأسيس وكالة أنباء أفغانية تنشر الأخبار الكاذبة وتحتكر وحدها- دون منازع- أنباء ما يحدث داخل الأرض الأفغانية.

.. ومن الأشـياء ذات الدلالة- فى هذا الخصـوص- أن مشـهد إسقاط تمثال صدام حسين في قلب بغداد، كان مسرحية من إعداد وإخراج إحدى شركات الدعاية والإعلام أيضا فقامت بتعبئة أكثر من ١٠٠ شـــخص لكي يكونوا جاهزين للتصـــفيق وكان منهم أعضاء حاليون فى مجلس الحكم الانتقالى..

إذن الرأى العام هو الضـــحية دائما.. وينفق مئات الملايين من أجل إحكام الســـيطرة عليه، وليس أدل، على ذلك من اســـتحداث الإدارة الأمريكية لموقع يشـــغله شـــخص بدرجة مســـاعد وزير الخارجية لشؤون دبلوماسية العلاقات العامة، مهمته اتفاق عشرات الملايين لضـــمان«تأييد» أو على الأقل«ارتياح» الرأى العام فى العالمين العربى والإسـلامى للسياسـة التى تتبعها الولايات المتحدة فى العراق ومنطقة الشـرق الأوسـط وكذلك «لتبييض» وجه أمريكا خصـوصـا بعد أن أكدت تقارير سفراء أمريكا فى العالم أن موجات الكراهية ضد أمريكا تتلاحق باستمرار بين شعوب الأرض بحيث أصبحت كلمة«مواطن كريه» مرادفة لكلمة«مواطن أمريكى».

● دبلوماسية العلاقات العامة:

والمعروف أن دبلوماســـية العلاقات العـامـة هى التى تقود الحملة الإعلامية التى تسـتهدف تلميع صـورة أمريكا فى الخارج وتقليص موجات الكراهية المتلاطمة فى كل أنحاء المعمورة.

وفي هذا الصدد أصدرت أمريكا مجلة أسبوعية ناطقة باللغة العربية باســـم«هاى» وكانت قبل ذلك أنشـــأت محطة إذاعية باســـم«راديو ســـوا يبث إرســـاله فى القاهرة والرباط بالمغرب انتظارا للحظة التى يطوق فيها كل العواصم العربية..

وثمة حديث عن إنشــاء محطة تليفزيونية باســم«الحرة» – تحقق ذلك بالفعل لاحقاً - والهدف هو إعطاء الصورة الصحيحة عن أمريكا وتنقيتها من الشــوائب التى تعلق بها.. والتركيز على«القيم المشــتركة» في تسـويق صـورة أمريكا المتسـامحة لاســتمالة عقول وقلوب العرب والمســلمين وإتاحة الفرصـة للمســئولين الأمريكيين والكُتّاب والصــحفيين المتعاطفين مع التوجهات الأمريكية للظهور فى وســائل الميديا لشــرح وتبرير السياسات الأمريكية.

وليس من شك أن الرأى العام فى العالمين العربى والإسلامى هو المســتهدف من دبلوماســية العلاقات العامة الأمريكية وعلى أي حال لا يحسبن أحد أن هذا القول ما يمكن أن يعتبر تجنيا على الحقيقة، فها هو دونالد رامســفيلد وزير الدفاع الأمريكى يعترف بوجود مكتب يشــرف عليه شــخصــيا لا مهمة له سـوى تزييف الحقائق وبثها على الكوكب الأرضــى قاطبة. وهناك وحدة تعرف باسم«وحدة التأثير الاستراتيجي، ميزانيتها عشرات الملايين من الدولارات وتتعاون مع جهاز ال CIA وتتعامل مع صــحفيين وكتاب من الشـرق الأوسـط فتعطيهم رسـائل صـحفية وتعليقات وتمدهم بـالمعلومـات التى تتوافق مع أمنيـات ورغبـات الإدارة الأمريكية في بلادهم مقابل رواتب شــهرية تصــل إليهم بطريقة خفية حتى لا يفتضح أمرهم ولضمان ولائهم وانحيازهم التام لكل الطروحات الأمريكية وتقوم وحدة التأثير الاسـتراتيجي بتسـريب معلومات تبتلعها الصــحافة الأمريكية والعالمية لخدمة المصــالح الأمريكية..

وليس خافيا أن المستهدف هو الرأى العام أولا وأخيرا.

الأكاذيب الخمسة

وفى هذا السياق صدر كتاب «بعنوان الأكاذيب الخمسة لبوش فى العراق لثلاثة من الصحفيين الأمريكيين هم: لاكمي شودرى، وكروستوفر شير« وروبيرت شير، ويغوص فى تفاصيل الموقف الأمريكى من العراق، ويدين الإدارة الأمريكية بالكذب والنصب والاحتيال- بهدف إقناع الرأى العام الأمريكى بصحة مسلكها- روجت شائعات منها أن صدام حسين يملك أسلحة دمار شامل ومن ثم يصبح- والحالة هذه- خطر حقيقيا على الأمن القومي الأمريكى.. كما روجت لشائعة أن صدام حسين يرتبط بعلاقات وطيدة بأسامة بن لادن زعيم القاعدة الإرهابية فى العالم، وتحدثت دوائرها عن مقابلات جرت بين عدى صدام حسين، وأسامة بن لادن، وأن خطة محكمة وضعت لتمويل وتنفيذ عمليات إرهابية داخل أمريكا وضرب مصالحها فى الخارج.

وكشف الكتاب زيف ما قيل حول سعادة الشعب العراقى بالاحتلال الأمريكى لأن المقاومة الباسلة مستمرة حتى اليوم وترفض صدام والاحتلال معا. ويشير الكتاب إلى اعتراف أحد الجنود الأمريكيين بأنه تعرض مع رفاقه إلى عملية تعتيم إعلامى عندما قيل لهم أن ذهابهم إلى العراق لن يكون أكثر من نزهة فى منطقة الخليج لكنه فوجئ بأن الموت يحاصرهم فى كل لحظة.

ومن بين هذه الأكاذيب أيضا أن العراق سوف يتحول إلى واحة للديمقراطية وهو بذلك سوف يحقق طموحا أمريكيا يتعلق بالرسالة التبشيرية التى تحملها أمريكا للعالم بغرض إنهاضه من كبوته..وأخطر ما فى هذا الكتاب أنه يؤكد تلاعب الإدارة الأمريكية المتعمد فى الرأى العام لأن هذه الأكاذيب وغيرها جاءت ضمن خطة إعلامية ترويجية محكمة تهدف إلى إحكام القبضة على عقول الشعب الأمريكى

وكذلك شعوب العالم، لتصوير أن أمريكا دولة ليست سيئة وهى تريد دمقرطة العالم، وليس النفط يبقى أن نشـــير إلى أن المكتبات العالمية شـــهدت فى المرحلة الأخيرة رواجا لكتب كثيرة تميل فى معظمها إلى إدانة الولايات المتحدة بالكذب والاحتيال، وتكشـــف ضـــمن ما تكشـــف فنون الإدارة الأمريكيـة وألاعيبها من أجل الاســـتحواذ على الرأى العام وتشـــكيله بالطريقة التى تتناســـب مع حلمها الإمبراطورى، ويدعم سـياســاتها الطامعة فى منطقة الشـرق الأوسط بابتلاع الأكاذيب والأوهام.

الفصل الثانى: الرأى العام العالم. أكذوبة

.. لأمر ما تكون «وسـائل الميديا» هى الهدف الاسـتراتيجى الأول الذى تضـعه أى قوة انقلابية (فى أى دولة) فى اعتبارها بحيث يكون فرض السـيطرة عليها على رأس أجندتها لأنها تعلم أن امتلاك«المعلومـة» شـىء مهم والسـيطرة على«حواس» الشعوب شرط أساسى لنجاح أى فكرة أو مخطط.

ولذلك تأتي «الدعاية»، أو «الإعلام»، أو «الميديا» ضـمن أدوات السياسة الخارجية لأى دولة جنبا إلى جنب مع الدبلوماسية والحرب.

وإذا تـأملنـا مجمـل الأحـداث الإقليميـة والـدوليـة القريبـة (خصـوصـا الحرب الأمريكية علي العراق) لوجدنا أن وسـائل «الميديا» هى المتورط الأول فى هذه الحرب.

ولذلك تم فبركة أكاذيب عديدة شملت أسباب الحرب ونتائجها على السـواء بهدف خدمة الفكر الإمبراطورى الأمريكى الذى يريد أن يسـيطر على العالم من أقصـاه إلى أدناه امتثالا لمقولة مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية السـابقة«العالم لنا.. العالم للأمريكان!

والثابت اليوم أن هدف أمريكا من الحرب الضروس التى شنتها على العراق لم يكن إسقاط نظام صدام حسين أو نزع أسلحته للدمار الشـامل حسـبما تروج أبواقها الدعائية والإعلامية بكل وسـائل الميديا، وبشتى اللغات، وفى كل بقاع الأرض لأن هدفا«متواضعا» كهذا ليس فى حاجة إلى تعبئة كل هذه الحشـود والعتاد (ربع مليون جندى أمريكى وبريطانى) في المنطقة، خصـوصـا إذا علمنا أن لجان التفتيش الدولية أكدت أن العراق«خال» من أسـلحة الدمار الشـامل، ثم أن إسـقاط نظام صـدام حسـين هو أمر قد تحققه فرقة صغيرة فى زمن قصير ثم ينتهى الأمر..

لكن لأن الهدف كان هو احتلال العراق.. فكان لابد من تسويق الأكاذيب وترويج الحجج والأعذار فى كل وسائل الميديا، لكسب الرأى العام الأمريكى والعالمى إلى صف الحرب.

.. وحول نفس المعني يؤكد الخبراء الاستراتيجيون أن العراق لو كان يصدر «طماطم» أو «تفاحا» لما كانت اهتمت به أمريكا لا من قريب ولا من بعيد، ولكن لأنه يصدر «النفط» ويتحكم بشكل أساسى فى أسعاره، فكان لابد من احتلاله، واستغلال ثرواته لتضخ القوة.. في النهاية.. فى شرايين الدولة العظمي فى العالم.. فضلاً على أن أمريكا التى تستهلك ربع إنتاج الطاقة فى العالم، لم تشأ أن تظل دولة «طامحة» إلى القوة «مثل العراق» التى تتحكم فى هذه السلعة الاستراتيجية فى العالم (النفط).

والحقيقة التى لا ينكرها أحد هى أن رحيل صدام حسين هو جزء أساسى من خطة شاملة تستهدف تغيير أو «إعادة صياغة» منطقة الشرق الأوسط، فأمريكا المنتصرة فى الحرب الباردة (ثم في حرب الخليج الثانية) رسمت موقفها السياسى فى منطقة الشرق الأوسط انطلاقا من هذه النجاحات.. والصورة المأمولة هى: أن تكون هناك سوريا ضعيفة، والالتفاف حول إيران لضمان الحدود الشمالية لإسرائيل وإسقاط نظام صدام حسين لتحل محله قوة إستراتيجية قوامها تحالف تركي إسرائيلى.. وهذه الصورة مرهونة بتحرك أمريكى حاسم لاحتلال العراق.

وبالتالى رأت الإدارة الأمريكية أن وجود «عراق قوى» تحت قيادة صدام حسين هو أمر يشكل خطورة بالغة لكل المصالح الأمريكية فى المنطقة ليس فقط بسبب الأفعال التى يمكن أن يقوم بها ولكن أيضا- موقفه سيكون دليلا على عدم قدرة أمريكا على متابعة سياساتها الطموح فى العالم..

.. ولم يغب عن بال قادة أمريكا أن الهدف الأسمى وهو احتلال العراق يحتاج إلى جيش من الإعلاميين تكون مهمته التمهيد لهذا العمل بنشر الأكاذيب وتزييف الحقائق ولكن.. وكما يقول دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى بات يتعين على الصحافة ألا تكون لها مهمة أخرى غير ترويج الأكاذيب ويذكر أن هناك مكتبا ملحقا بالبنتاجون يشرف عليه بنفسه، مهمته الأساسية بث الأكاذيب المختلفة على الكوكب الأرضى قاطبة.

وهناك وحدة تعرف باسم وحدة التأثير الإستراتيجى وميزانيتها عشرات الملايين من الدولارات قامت بتوقيع عقد بحوالى ١٠٠ ألف دولار شهريا مع شركة اتصال تعرف باسم«ريندون جروب» تعمل فى مواقع استشارية لعدد من دول الخليج والتعاون مع جهاز المخابرات ال C.I.A والمعارضة العراقية معا..وتتعامل هذه الشركة مع صحفيين وكُتّاب فى الشرق الأوسط والعالم العربى وأسيا وأوروبا، فتعطيهم رسائل صحفية، وتعليقات وتمدهم بالمعلومات التى تتوافق مع أمنيات ورغبات الإدارة الأمريكية وتفعيل الخيارات الخاصة بالحرب والاستراتيجية الأمريكية فى بلادهم فى مقابل رواتب شهرية تصل إليهم بطرق خفية حتى لا يفتضح أمرهم، ولضمان ولائهم وانحيازهم التام لكافة الطروحات الأمريكية.

ولقد أثير حديث حول هذه الوحدة (وحدة التأثير الاستراتيجى) بقدر ما يؤكد أنها ألغيت لكن رامسفيلد عاد ليؤكد أن إلغاءها تم (على الأوراق) لكنها لا تزال تمارس أنشطتها.

وكانت« لوس أنجلوس تايمز» تحدثت عن خطط احتكار المعلومات وأشارت إلى إدارة المعلومات الموجهة إلى العامة ورقابة المصادر الصحفية والسيطرة على الرأى العام.. وذكرت أن هناك رسائل إعلامية تهدف إلى ترويج سوء الفهم.. وأوضحت أن وحدة التأثير الاستراتيجى تقوم بتسريب معلومات لكى تبتلعها الصحافة الأمريكية والعالمية لخدمة المصالح الأمريكية.

.. «أيا كان الأمر» ومهما كانت قوة الدعاية التي تبثها الولايات المتحدة، فالمحقق أن الحرب دارت رحاها فى العراق، لم يكن من هدف لها سوى احتلال هذا البلد العربى، ليكون نقطة انطلاق للمخطط الأمريكى الخاص بإعادة تشكيل منطقة الشرق الأوسط واحتكار القرار الدولى لأطول مدة ممكنة والبقاء سيدة العالم بلا منازع.

.. كما أن ضمان أمن إسرائيل هو أحد الأهداف التى ترمى إليها أمريكا من وراء هذه الحرب، وكذلك إقامة محور يجمع تل أبيب و«بغداد الجديدة» وأنقرة يكون رأس حربة لضمان الاستقرار ويحقق لأمريكا الهيمنة الكاملة.

.. بمعنى آخر أن الحرب الأمريكية في العراق هى.. في الواقع- كوكتيل حروب: حرب عسكرية، وحرب إعلامية، وحرب نفسية، يديرها البنتاجون خصوصا عبر وحدة التأثير الإستراتيجي التى يقودها دونالد رامسفيلد وزير الدفاع السابق بنفسه ومهمتها تزييف الحقائق وتسريب المعلومات الكاذبة لكى تبتلعها الصحف الأمريكية العالمية.

وما يحدث- بين وقت وآخر- من تضارب حول مصير أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى والشرائط المسجلة التى يقال أنهما يبعثان بها.. كل ذلك ليس إلا من قبيل الأخبار المزيفة التى يروجها البنتاجون عبر وحدة التأثير الاستراتيجى.

.. ولعل أخطر الحقائق التى تم تزيفها إعلاميا حتى كادت تصبح حقيقة راسخة مع«أنها فى الأصل» أكذوبة كبرى، هى حقيقة أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ وهل هى بالفعل من صنع أسامة بن لادن مؤسس تنظيم القاعدة الإرهابى، أما أنها من فبركة المخابرات الأمريكية بكافة أنواعها؟

الراجح أنها من صنع الأخيرة (أى المخابرات) ولقد صدرت عشـــرات الكتب في أوروبا وأمريكا ترجح هذه الفرضـــية لكن الميديا الأمريكية ترفض ذلك شكلا وموضوعا وتزعم أن أسامة بن لادن هو الذى يقف وراء هذا الحادث الذى هز العالم هزا عنيفا.. بل وتغضـــب الحكومة الأمريكية إذا ما تحدث الآخرون عن فكرة المؤامرة التي حاكتها الإدارة فى البيت الأبيض لتخلق بذلك الحجة أو الذريعة لكى تغزو العالم، وتحتل من مناطقه كما تشاء.. ولعل أول كتاب صدر فى هذا الشأن كان لكاتب فرنسى يدعى تيرى ميســان وهو بعنوان«الخديعة الكبرى».. لكن قامت الدنيا فى أمريكا ولم تقعد، وحاولت احتواء الكتاب بعد أن صـــدر بعدة لغات ومنها اللغة العربية، وكتب ديفيد وولش الســـفير الأمريكي فى القاهرة وقتذاك محتجا على الصحف المصرية التى تفســح المجال لشــرح فرضــيات وأفكار هذا الكتاب.. بل وقفت أمريكا وراء إغلاق مركز الشـــيخ زايد للأبحاث والذى كان أول من ترجم كتاب الخديعة الكبرى، ودعا المؤلف لإجراء نقاشـــات معه، أصـــدرها المركز لاحقا فى كتاب..بمعنى آخر أن أمريكا تقود إلى جانب حربها العسكرية فى العراق حربا إعلامية فى كل الاتجاهات بهدف الوقوف فى وجه الحقائق حتى يتســـنى لها ترويج أكاذيبها.

.. ومن هذه الحقائق أن واشنطن كانت تعلم قبل شـهرين على الأقل من وقوع أحداث ١١ سبتمبر أن هناك مجموعة تضم نحو ٢٥ شـــخصـــا من الطلاب العرب يتدربون على قيادة (بل وخطف)طائرات الركاب.. وتحدث ضـــابط أمن أمريكى عن شـكوكه فى أن يكون لهؤلاء «صـلة ما» بأسـامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة فى أفغانســـتان إلا أن جهاز الC.I.A لم يرى في هذا القول ما يكفى من الدوافع والأدلة لوضع شكوك هذا الضابط الأمريكى موضع فحص وتمحيص!!

وكانت أجهزة أمنية لنحو خمس دول هى:روسـيا، ومصـر، وإسـرائيل، وفرنسـا وألمانيا) حذرت أمريكا من وقوع هجمات على أماكن بعينها داخل الأراضى الأمريكية .. ففى يونيو ٢٠٠١ بعثت المخابرات الألمانية بتقرير سرى تذكر فيه بالحرف الواحد أن إرهابيين قادمين من الشرق الأوسط لديهم نية خطف طائرات لمهاجمة رموز مهمة داخل أمريكا، لكن جهاز ال C.I.A الأمريكى لم يعر هذا التقرير الألمانى أدنى اهتمام.

وثمة واقعة مؤكدة فى أن الرئيس الروسـى بوتين كلف معاونيه بإرسـال تحذير إلى الحكومة الأمريكية من أحداث إرهابية يتم التخطيط لها وتستهدف مواقع حساسة فى نيويورك وواشنطن وتحدث ضابط روسى كبير إلى نظيره الأمريكى عن عمليات انتحارية لضرب أمريكا.

وفى مقابلة صـحفية قال بوتين: إننى مندهش من رد فعل واشـنطن إزاء التحذيرات التى لفتنا نظرها إليها لقد هز قادة أمريكا أكتافهم فى سخرية ولا مبالاة وكانت إجابتهم غريبة عندما قالوا: لا نسـتطيع أن نفعل شـيئا ما، لأن نظام طالبان يرفض أن يطرد أسامة بن لادن.

.. ويرجح رجال الاستراتيجيا القول بأن هذه الردود من الجانب الأمريكى التى لم تأخذ كل هذه التحذيرات على محمل الجد، هى أمر مخطط له دلالاته سلفا، لأنه يخدم الأهداف الأمريكية فواشنطن تريد أن تقع«الكارثة» لكى تتذرع بها كدولة جريحة تريد أن تنتقم لنفسـها دون أن يعترض أحد عندما تحرق الأخضـر واليابس لاحقا..(وهو ما حدث بالفعل فى العراق منه العالم).

وهكذا كانت وسـائل «الميديا» مرتكزا أسـاسـيا للمخطط الأمريكى عن طريق نشـر الأكاذيب وأهمها أن أمريكا جاءت لتحرير العراق وليس لاحتلاله، إلى حد يجعلنا نشـعر- بحق- أننا نعيش عصر الأكاذيب الأمريكية الكبرى.

باختصـــار لابد أن نعترف - بداية- بأن مفهوم «المجتمع الدولى» هو أكثر المفاهيم السياسية التباسا، خصوصا بعد أن افتضـح أمره فى ضـوء تاريخين مهمين، الأول هو ٩ نوفمبر ١٩٨٩ وهو سقوط حائط برلين وانفراد الولايات المتحدة بالقرار الدولى(بعد انهيار الاتحاد السوفيتى) والثانى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، الذى فتح شـهية الولايات المتحدة نحو الانتقام من العالم- كل العالم- باعتبار أنها دولة جريحة راح من أبنائها أكثر من ثلاثة آلاف ضحية.

.. فالثابت- نظريا على الأقل- أن مصـطلح المجتمع الدولى يعنى، أن هناك مجموعة من الدول تحترم نفس القوانين وتقتسـم مصلحة مشتركة، لكل ما يحدث- فى أرض الواقع- يدل على أن هناك زيفا كبيرا يتعلق بالمفهوم وتطبيقاته على السواء..فالمفهوم تقلص (وفقد كثيرا من مدلولاته) وأصبح يعنى- فى أقصاه- إرادة دولة واحدة كبرى أو على أكثر تقدير إرادات مجموعة صـغيرة من الدول، اجتمعت لتحقيق مصـلحة ما، ومن ثم فالقراءة الصحيحة للمفهوم- فى هذه الحالة تجعلنا نحصره فى الدائرة الضيقة التى تعبر عنها الاتحادات والروابط والجامعات الإقليمية (وليست الدولية أو العالمية).

لكن ما يحدث عمليا، هو أن هذه الإرادة الفئوية، (التى تعبر عن فئة بعينها)، تحاول أن تصبغ نفسها بالصبغة الدولية لتظهر فى ثوب عالمى وكأنها إرادة عالمية مع أن العالم منها براء!

.. وفى أحايين كثيرة، تصور دولة واحدة- مثل أمريكا- إرادتها وكأنها الإرادة الدولية، ومن ثم يتحتم على العالم أن يرضخ لها دون مراجعة، وقد تكرر هذا الأمر كثيرا حتى بات مألوفا، ولم يعد يجادل أحد فى ضرورة الفصل بين «الإرادة الأمريكية» بوصفها إرادة دولة واحدة و«الإرادة الدولية»التي يجب أن تعبر عن مجموع إرادات دول العالم. فتاهت الأولى فى الثانية وأصبح عسيرا التمييز بينهما.

ولا شـــك أن الأحداث الدولية القريبة والبعيدة تؤكد أن هذا الخلط (المتعمد وغير البريء) بين الإرادتين، فما تريده أمريكا- الدولة الأقوى فى العالم- هو ذاته ما يجب أن تريده كل الدول (أو هكذا ينبغي أن يكون).. وللعالم أن ينشـــئ ما يشـــاء من القوانين، والقواعد التى تحكم العلاقات السياسية الدولية، لكن هذا لا يعنى أن أمريكا يجب أن تخضـع لها (فهذا شـيء، وذاك شـيء أخر)، والمثال الصـــارخ على ذلك، هو رفض الولايات المتحدة فكرة إنشــاء محكمة جنائية دولية، وإصـرارها على عدم تقديم جنودها (المنتشرين في العالم) إلى هذه المحكمة مهما كانت المجازر التى ارتكبوها.. وقصــــة رفض اتفاقية «كيوتو» معروفة، برغم أن أمريكا من أكثر الدول تلويثا للمناخ وتتصـــدر قائمة المســؤولين عن ظاهرة الاحتباس الحرارى فى العالم.

الغريب أن هذه الســلوكيات (المارقة) من جانب واشــنطن لا يطرف لها جفن وكأنها أمر عادي، ولم يتساءل (إلا القليلون) عن المجتمع الدولى الغائب أو المُغيّب (لا فرق)، ولكن إذا خالفت (دولة صـــغرى) بعض القواعد الدولية وأغضـــب ذلك الدولة الكبرى، تُرفع الأصـوات فى العالم أجمع تُحذر من الخروج على إرادة المجتمع الدولي أو الشــرعية الدولية، التى تبدو وكأنها- فى هذه الحالة- ضـــحية يجب عدم الصـــمت إزاءها.. ولعل هذا ما نقصـــــده بـالزيف الـذى بـات يغلف مفهوم المجتمع الـدولى الذى«يغيب» و«يحضر» بحسب إرادة القطب الواحد.

والخطير في الأمر، أن الأمم المتحدة التي تعتبر التجســـيد الحقيقي و (الواقعى) لفكرة الإرادة الدولية، وأصـــبحت فى حكم الملغاة أو الغائبة (بشـــكل دائم)، فها هى مادلين أولبريت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة تقول: الولايات المتحدة (وليس الأمم المتحدة) هى التى تسوس النظام الدولى!

وعبر ممارسات دولية عديدة أصبح راسخا أن المنظمة الدولية ليست إلا إحدى أدوات تنفيذ السياسة الخارجية الأمريكية، ومن ثم لم يعد ما يقوله كوفى أنان أمين عام الأمم المتحدة السابق، يختلف فى قليل أو كثير عما تقول به الإدارة الأمريكية.

فما يصدر باسم المنظمة الدولية بشأن العراق أو دارفور مثلاً، ليس أكثر من قرارات أمريكية.. وبدلا من أن يصرح بها مسئولون أمريكيون يتولى موظفو الأمم المتحدة مهمة الإبلاغ.

.. وفى الأزمة الأخيرة الناشئة بين المنظمة الدولية ولبنان، بشأن تغيير الدستور، اعترضت أولا الإدارة الأمريكية على فكرة تغيير بعض مواد الدستور اللبنانى (برغم موافقة الحكومة والبرلمان)، كما أصدر كوفى أنان لاحقا بيانا يطالب فيه دول العالم بعدم التلاعب بدساتيرها.. فكان كل دوره- كأمين عام- أن يصادق على ما تراه أمريكا وترغبه فقط لا غير.

..ومع تكريس هذا الحال، الذى يضمن لأمريكا (القوة والنفوذ)، فقد مفهوم «المجتمع الدولى» مدلولاته (الجمعية)، كما فقد ما كان يستوجبه من تقدير وإجلال.. والعجيب أن أمريكا كانت أول من فتح طريق التقليل من هيبة ما يعرف بالمجتمع الدولى.. فيروى أن الرئيس الأمريكى ريجان عندما بلغه نبأ أن هناك نحو مائة دولة في الأمم المتحدة أدانت غزو أمريكا لجرينادا فى عام ١٩٨٣، قال فى استخفاف: أن هذا الأمر يجب ألا يعكر صفو إفطارى الصباحى.

وشيء قريب من ذلك قاله جيمس دولى المدير السابق لوكالة المخابرات الأمريكية فى حديث جاء فيه.

إننا يجب ألا نبالى برد فعل العالم العربى، لان صمته فى أعقاب الانتصارات الأمريكية فى أفغانستان يثبت أن الخوف وحده هو الذى سيعيد الاحترام للولايات المتحدة.

ومعنى ذلك أن أمريكا لا تلقى بالا لقانون، أو عرف أو رأى عام أو مجتمع دولى، وحسبها أن تحافظ على مصالحها (الحيوية) بتوظيف جميع الآليات الإقليمية والدولية لتحقق ما تريد، أما إذا حدث بعض التضـاد بين إرادتها وإرادة أى هيئة، حتى ولو كانت الأمم المتحدة، فسوف تضحى بها فى لمح البصر..

فيروى عن سـفير أمريكا فى الأمم المتحدة قولـه: أنهم لو أرادوا نقل مقر الأمم المتحدة خارج أمريكا، فإن إدارة ريجان لن تفعل شـيئا لإيقافهم، وأضـاف فى حديثه إلى المندوبين الدائمين: لن نضـع عوائق فى طريقكم، وسيذهب أعضـاء البعثة الأمريكية للموانئ لتوديعكم وأنتم تبحرون إلى ما وراء الشمس!

.. وهكذا يتبين لنا أن المجتمع الدولى وكذلك الإرادة الدولية أو الشرعية الدولية، ليست إلا «أحجية» أو «فزورة» تتسلى بها واشنطن وقتما وأينما تريد..

ظاهرة «اللبننة فى الإعلام العربى»

أعرف جيداً أنه بطرح هذا الموضـــوع، إنما أقترب من «عش الزنـابير» الـذى لطـالمـا رأينـاه، وامتثـل كثيرون لـه خوفـاً من اللدغات التى قد تكون فى بعض منها ســـامة و قاتلة!ولئن كنت أتجشـــم أهوال هذا الاقتراب، فليس لادعاء البطولة، وإنما لأن الأمر بات واضـــحاً لا يخفى على كل ذى عينين، إلا من شـــاء لنفســـه أن يكون أعمى أو متعامياً!.. والقضـــية هى أن الإعلام اللبنانى قد صـــادر - بحق- الإعلام العربى، كل الإعلام العربى، لحسابه الخاص، فاللغة الإعلامية فى كل وسـائل الميديا - تقريباً- أصـبحت لبنانية بامتياز أعنى المصـطلحات، والمفاهيم، وطريقة الكتابة كما تأثر الأسلوب، رغم خصوصيته بالنهج اللبنانى.فهناك كلمات كثيرة بتنا نكتبها ونرددها ونعنون بها مقالاتنا، وهى فى الأصل كلمات لبنانية صرف.

وللإنصـــاف يجب أن نذكر أن معظم هذه التأثيرات اللبنانية جـاءت من الترجمـة التى يحتكرهـا اللبنـانيون منذ فترات زمنيـة بعيدة.. فالكتاب المترجم هو بالضـــرورة قد جاءنا من لبنان أو ترجمه لبنانى، وصدر فى مكان آخر.. يحدث هذا مع لغات عديدة مثل الفرنسـية، والإنجليزية، والإسـبانية، ورغم أن مصـر كانت تزاحم لبنان فى مجال الترجمة خصوصاً فى الهيئات الدولية مثل الأمم المتحدة، واليونسـكو، بحكم أن أرض الكنانة كانت أول من أنشـــأ كلية للترجمة فى وقت مبكر وبرعاية خاصـــة من رفاعة رافع الطهطاوى الذى عاش فى باريس دارســـاً وواعظاً ثم عاد ليحمل مشـــعل الترجمة والتنوير فى مصـــر بعد ذلك.إلا أن واقع الحال يؤكد أن المترجمين المصـــريين فى الهيئات الدوليـة قد تقلص عددهم بسبب احتكار اللبنانيين لهذا الباب فقط، ولكن أيضاً لمزاحمة أخرى أبطالها من المغاربة وشمال أفريقيا.

أريد أن أقول إن الغلبة كانت للفينيقيين فتوارى -بطبيعة الحال- المصريون الفراعنة حتى أصبحوا قلة، ولذلك نشر اللبنانيون مصطلحاتهم وألفاظهم فى مئات الترجمات وآلاف الوثائق والتقارير حتى كادت تصبح مألوفة على كل الآذان والألسن. وأزعم أن كل صحفى أو كاتب فى مصر إذا اختبر كتابته من حيث أفكارها أو أسلوبها أو طريقة معالجتها لاكتشف أنه لابد وقع تحت تأثير اللبننة فى كلمة أو عبارة أو رؤية على أقل تقدير.. أقول هذا بعد أن قمت بنفسى بهذه التجربة وأحصيت عدداً من الألفاظ والكلمات اللبنانية التى تنتشر على أسنة الأقلام، بل وعلى الألسنة عبر الفضائيات.. فكلنا اليوم - مثلاً نتكلم عن جماعة «١٤ آذار» التى تمثل الأغلبية ولم نسمها جماعة «١٤ مارس»! كما نتحدث عنها ونقول إنها تمثل الموالاة.. وهى كلمة لبنانية محضة ومعناها أولئك الذين يوالون أو يتبعون حكومة رئيس الوزراء السابق السنيورة فى مقابل جماعة «٨ آذار» التى تشكل المعارضة أو الأقلية. وكلنا اليوم يتحدث عن التوافق اللبنانى ولا نتحدث عن الاتفاق.. والتوافق الذى ملأ علينا الأرجاء هو مصطلح نحته اللبنانيون، وروجته الميديا فى العالم العربى.

وهناك مصطلحات أو كلمات ترجمها اللبنانيون وشاعت فى الوسط الإعلامى العربي مثل كلمة ناشط التى تقال بشأن أعضاء المجتمع المدني، وكلمة فعاليات التى تحل محل أعمال المؤتمر وأنشطته وكلمة تفعيل وتعنى تنفيذ.. هذه - بالطبع- مجرد أمثلة دلالية لأن الحصر سيكون صعباً لكثرة المفردات اللبنانية التي غزت الميديا العربية من ناحية، ولأن المقام لا يسمح من ناحية أخرى، فالمعنى المقصود هو التدليل والبرهنة على وجود ظاهرة اللبننة فى الإعلام العربي. ومعلوم أن الصحافة العربية تحديداً كانت تحكمها إلى وقت قريب مدرستان الأولى لبنانية، والثانية مصرية وكلتاهما سارت جنباً إلى جنب ردحاً من الزمن حتى انقلب الحال

وتعثرت الخطوات المصرية لتتقدم اللبنانية وحدها.ويحضرني - على الفور- ما قام به اللبنانيون أو الشوام في مصر، فآل تكلا هم الذين أطلقوا جريدة «الأهرام» في مصر قبل أكثر من ١٣٠ عاماً، وجورج زيدان أطلق مجلة «الهلال»، وبعض أخواتها التي تصدر عن هذه الدار العريقة.. وكلنا يذكر المفكرين الكبيرين فرح أنطون وشبلى شميل فرسان جريدة المقطم.. لكن في هذه المرحلة كان التمصير فى الكتابة والترجمة هو سيد الموقف، وهو حال عكس الحال الذى أتحدث عنه اليوم ... فكل المفردات الجديدة، والرائجة والمنتشرة على أسنة الأقلام لبنانية بلا منازع! والأخطر من ذلك أن مهنة الصحافة والكتابة كادت تصبح فى عصرنا الحالى - وفى زماننا الراهن - مهنة لبنانية أولاً، ثم مصرية أو خليجية بعد ذلك.فمعظم الصحف فى منطقة الخليج يديرها - فى مواقع العمل- لبنانيون، صحيح يعمل فيها مصريون، لكن بدرجة «فواعلية» ولا مكان لهم في دوائر صنع القرار داخل الجريدة أو المجلة. وعندما أسوق ذلك فليس لتفخيم أهل لبنان، أو تقزيم أهل مصر، وإنما لإقرار حالة، يعرفها القاصى والدانى من العاملين فى هذا المجال..ومع طفرة الفضائيات أصبح هذا الحال الذى أشخصّه فى الصحافة المكتوبة واقعاً مرئياً نشاهده كل صباح وكل مساء .. فالإعلاميات اللبنانيات سيطرن على الشاشة الصغيرة فى كل الدول العربية، حتى أن مصر قد استعانت ببعضهن لبعض الوقت.. والأهم أنهن بتن حاضرات حتي وهن غائبات .. أعنى أن أسلوبهن فى اللبس والماكياج، وطريقة التقديم، وقراءة النشرات والتقارير أصبحت نموذجاً تقلده الإعلاميات فى مصر والخليج، والمغرب العربى .. وضمن هذا السياق الذى لا أعنى منه ذماً أو مدحاً لأحد وإنما أعنى رصد الحالة، ألفت الانتباه إلى أن المسألة أصبحت أبعد غوراً فى الحياة السياسية والفكرية العربية، فظاهرة «اللبننة» باتت واضحة فى اختيار الموضوعات التى يعالجها الإعلام

فهذا الخبر يأتى فى المقدمة لأنه لبنانى، وذاك الحادث يأخذ هذه المســـاحة فى العرض والتحليل لأنه حادث لبنانى .. وهذه السيدة يتم إجراء محاورة معها على يومين أو ثلاثة أيام لا لشىء إلا لأنها لبنانية .. وهكذا وجدنا مثلاً أن قضية الاستحقاق الرئاسي فى لبنان أصبحت - بقدرة قادر- قضية القضايا، وحدث الأحداث .. فهى تكاد تلتهم معظم الأوقات المخصـصـة لنشـرات الأخبار، أمـا المراســلون فى بيروت، وبين الأحزاب المختلفـة وداخـل القصـور الرئاسـية أو الحكومية أو الخاصـة، فسيطروا بوجوههم ولكنتهم اللبنانية، وميولهم السياسية على الشاشات طوال سحابات النهار وحتى الهزيع الأخير من الليل.. وكأن العالم - كل العالم - قد وقفت دائرة الأحداث فيه لكي ينشــر اللبنانيون أحداثهم.. فهذا الرئيس ويقصـــدون رئيس الـدولـة لـه رأى .. وذاك الرئيس ويقصـدون رئيس الحكومة له رأى ثان وذلك الرئيس ويقصـدون رئيس مجلس النواب له رأى ثالث! وهكذا وجدنا أنفســنا بين رؤســاء لبنـان- المعلن منهم والخفى - فى حيرة وبـات الحدث اللبنانى نفطر به فى العالم العربى، ثم نتعشــى به أيضـاً ولا مانع أن يتسحر به الساهرون. ووسط هذا الخضم نسيت كتيبة الإعلام اللبنـانى أن هنـاك أحداثـاً خطيرة ومهمـة إن لم تكن أخطر وأهم تجرى فى العـالم وفي المنطقـة من حولنـا مثـل أحداث دارفور مثلاً، ومباحثات أنابوليس، وطوارئ باكسـتان والعنصـرية ضـد العرب فى فرنســا، وعودة الحرب الباردة بين روســيا وأمريكا وحرب أوكرانيا.. إلى آخر هذه الأحداث التى تؤثر على منطقتنا تأثيراً مباشـــراً.. ما أريد أن أقوله: إن لبننة الإعلام العربى باتت حقيقة.. ولا عزاء بعد ذلك للمتشـــدقين بالريادة المصـــرية فى الإعلام والثقافة .. وكفانا أكاذيب وافتراءات!!

الفصل الثالث: التضليل الإعلامى (حرب العراق نموذجا)

..لأمر ما تكون «وسـائل الميديا» هى الهدف الاسـتراتيجى الأول الذى تضـعه أى قوة ثورية (فى أى دولة) فى اعتبارها بحيث يكون فرض السـيطرة عليها على رأس أجندتها ولذلك كانت الخطوة الأولى لثورة ٢٣ يوليو بعد أن زحفت قواتها العسكرية نحو القصر الملكى –هو أن تصدر بياناً للأمة عبر الإذاعة المصرية، يتحدث عن الثورة.. وأهدافها الستة التى تشمل إصلاح الداخل والخارج، وبذلك تضمن «تحييد» إن لم يكن «تأييد» الشعب، والرأى العام.

وعندما اسـتقر تفكير هتلر على إن ألمانيا لن تتغلب على مشاكلها الاقتصادية إلا بغزو الدول القريبة منها وخصوصاً بولندا، كان لابد من ترويج معلومات تفيد بأن بولندا اعتدت على ألمانيا لكى يُبرر هتلر خطته الرامية إلى احتلالها. وبالفعل فى عام ١٩٣٩ خطب هتلر في نحو ١٤ شخصاً من كبار مساعديه وقادته العسكريين وقال: إذا أردنا أن نحل مشاكلنا الاقتصادية فى ألمانيا فعلينا أن نمد فضـاءنا الحيوى فى كل أنحاء أوروبا. ومن ثم ينبغى أن نغزو دولاً أقرب لنقل ثرواتها إلينا ولتصبح شعوبها مخزوناً احتياطياً للأيدى العاملة.

...وعبر وسـائل الميديا التى كانت مُتاحة فى ذلك العصـر، دأبت الدعاية الهتلرية على ترويج هذه الفكرة، وإقناع الناس بها.. وفى أغسـطس من نفس العام أعطى هتلر تعليماته إلى أحد قادته بأن يهاجم محطة إرسـال ألمانية تقع على الحدود مع بولندا، على أن يقوم بالعملية التى عرفت باسـم «هيملر» جنود ألمان لكن يرتدون الزى العسكرى البولندى لإيهام العالم أن القوات البولندية هى التى هاجمت ألمانيا، وتم استخدام عشرات السجناء الألمان الذين سقطوا ضحايا فى العملية التى أشرف عليها ضابط ألمانى كبير يدعى «نوجوكس».

.. حدث ذلك فى مساء ٣١ أغسطس ، ثم خرج هتلر فى أول سبتمبر ليعلن أن بولندا اعتدت على ألمانيا ولذلك فالواجب الوطنى الألمانى يحتم الرد على الفور. وبعد «فبركة» هجوم بالقنابل تمت تعبئة الجيش الألمانى نفسياً –بعد الدعاية والإعلام- للدخول في حرب ضد بولندا التى تجرأت بالاعتداء على ألمانيا وخطب هتلر يقول (كاذباً):

- دخل جنود بولنديون أرضنا، واعتدوا على ترابنا الوطنى وأطلقوا النيران على مواطنينا واسقطوا منهم ضحايا، لذلك قررنا أن نرد على القنابل، وعلي التفجيرات بمتفجرات وهكذا ، اندلعت شرارة الحرب العالمية الثانية بأكذوبة صنعها هتلر.

● وإذا تأملنا الأحداث الإقليمية والدولية الغربية وخصوصاً الحرب الأمريكية علي العراق، لوجدنا أن وسائل الميديا «هى المتورط الأول فى هذه الحرب»..

ولذلك تم «فبركة أكاذيب» عديدة، شملت أسباب الحرب ونتائجها على السواء بهدف خدمة الفكر الإمبراطوري الأمريكي الذى يريد أن يسيطر على العالم من أقصاه إلى أدناه امتثالاً لمقولة مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية السابقة: العالم لنا، العالم الأمريكان!.

..والحق أن وسائل «الميديا» كانت مرتكزاً أساسياً للمخطط الأمريكي عن طريق نشر الأكاذيب وأهمها أن أمريكا جاءت لتحرير العراق وليس لاحتلاله إلى حد يجعلنا نشعر –بحق- أننا نعيش عصر الأكاذيب الأمريكية الكبرى.. ولم لا، أليست أمريكا هي أكبر وأغنى وأقوى دولة فى العالم تتربع على عرش الاقتصاد، والتكنولوجيا والسلاح، ولذلك انعقد لها «لواء» القيادة أو الهيمنة (لا فرق)...

ولأنها كذلك، فهي تحتكر أيضـــاً وســـائل الميديا (قديمها وحديثها) تزيف ما تشاء من أنباء. وتروج ما تريد من معلومات، وليس على دول العالم اجمع ســـوى أن «تقتات» ليل نهار مما تسربه إليها من أخبار تبثها عبر شاشاتها، وتنشرها في صحفها، وتذيعها عبر الأثير وكأنه مسلمة من المسلمات الأمريكية التي لا تقبل الدحض أو الإنكار، وكيف لا يكون الأمر كذلك، وكافة المعلومات تأتينا رخية، ندية من سـيدة العالم (أمريكا).. «أياً كان الأمر فإن أحداً ليس بوســعه إنكار اتهام أمريكا بتزييف الحقائق وبأنها تمارس هذا العمل الشـــائن بطريقة (ممنهجة ومنتظمة) بحسـب «الواشـنطن بوسـت» التي تؤكد أن الأحداث الأخيرة في العراق تثبت بما لا يدع مجالاً للشــك أن الإدارة الأمريكية كذبت على الشعب الأمريكي والعالم عندما اتهمت نظام صـدام حسـين بأنه يخفي أســلحة دمار شـــامل في بلده، وبرنامجه النووي أكثر نشاطاً وأكثر حتمية وأكثر قرباً في تهديده مما أظهرت المعلومات المتوفرة لها.

ورغم زيف كل ما قيل حول قوة صدام حسين النووية، إلا أن أمريكا أصــرت علي اتهامه فتحدثت عن اليورانيوم، والأســلحة الجرثومية والكيماوية والمختبرات المنتقلة. ولم تشـــأ أن تتراجع قيد أنملة عن أكاذيبها حتى بعد أن تبين أن الشـــريك البريطاني (ممثلاً في توني بلير رئيس الحكومة البريطانية) أصبح على بُعد خطوات من القضـبان التي سـوف يقف وراءها متهماً بدفع خبير الأسلحة الكيماوية (ديفيد كيلي) إلى الانتحار بعد أن أفشى أسراراً تؤكد أن مكتب توني بلير مارس ضــــغوطاً عليه لكي يزيف في التقرير الخاص بأسلحة الدمار الشامل في العراق.

وكذبت أمريكا أيضـــاً عندما زعمت أن فلول نظام صــــدام حسين هى التى تقود المقاومة العراقية الباسلة فى العراق ونسيت أو لعلها تناســت أن الشــعب العراقى كان يكره صــدام حســين (المســتبد الجائر) لكنه أيضـــاً يرفض الاحتلال الأمريكى لبلاده لذلك اســتقبلت القوات الأمريكية ليس بالورود والرياحين كما كانت تظن أمريكا، وإنما بشعار: «لا لصدام ولا للاحتلال».

وتعمدت أمريكـا تشــويـه الحقـائق، وروجـت عبر أبواقهـا الدعائية أن ولدى صـدام حسـين (عدى وقصـى) هما اللذان يقفان وراء هجمات المقاومة العراقية التى تســتهدف قوات الاحتلال.. وظنت وأكثر الظن ليس بإثم، ثم فى هذه الحالة أن بوفاة عدى وقصـى سـوف تطوى صـفحة المقاومة.. وهو ما لم يحدث، لأنها تأتى عفوية ولا علاقة لها بأية رموز من النظام السابق.

- **أكذوبة تنظيم القاعدة:**

وكان طبيعياً أن تتجرع الإدارة الأمريكية غصص الفشل بعد افتضـــاح أمر هذه الأكذوبة.. لكنها وعلي طريقة (مداواة الجراح بـالجرح) روجـت لأكـذوبـة أن تنظيم القـاعـدة هو الـذى يحرك فصـائل المقاومة العراقية فى بغداد والبصـرة والنجف الأشـرف وهى تريد بذلك أن تخلق موطئ قدم لأســامة بن لادن (وأعوانه) فى العراق، يبرر لاحقاً ســحق رجال المقاومة العراقية، ولم لا أليسـوا هم في هذه الحالة – أعواناً وأنصـاراً ومريدين للإرهابى الأول فى العالم (اسامه بن لادن).. وكان سخيفا هذا القول الكاذب من جانب أمريكا، لأنها تعمل على تفريغ المقاومة العراقية من معناهـا النضـــالى الرفيع، وتريد في الوقت ذاتـه –أن تختزل- اختزالاً مخلاً- كفـاح الشـــعب العراقى الرافض للاحتلال- فى مجرد ردات فعل هوجـاء تصــــدر عن فئـات من فلول النظـام السابق.

ولما بدا أنها لم تفلح فى إقناع العالم بهذه الأكذوبة على الرغم من تسـريبها أنباء تنسـب بعض عمليات المقاومة العراقية إلى تنظيم القاعدة خططت لعملية تفجير مقر الأمم المتحدة فى بغداد.. ثم نسبت ذلك عن عمد إلى المقاومة العراقية بغرض تشويهها من ناحية واستعداء باقى دول العالم ضدها من ناحية أخرى، وليس صعباً اكتشاف أن أمريكا تكذب للمرة الثالثة، لأننا وبحسب القاعدة الجنائية المعروفة لو بحثنا عن المستفيد الأول –إن لم يكن الوحيد- من اغتيال دور الأمم المتحدة فى العراق فسوف نؤمن أن أمريكا هى التى تقف وراء هذا الحادث لأنه يحقق لها هدفين: الأول أنه يقزم دور الأمم المتحدة فى العراق ويجعله قاصراً على تقديم مساعدات إنسانية فقط، ليكون –فى هذه الحالة- أشبه بدور عربة الإسعاف التى تهرع إلى مكان الحادث –أى حادث- لتقديم الغوث والإعانات.

ومعلوم أن سيرجيو دو ميللو الممثل الشخصى لأمين عام الأمم المتحدة الذى راح ضحية هذا الحادث كان يطمح إلى أن يلعب دوراً أكبر فى العملية السياسية داخل العراق (وليس فقط فى العملية الإنسانية).. بل أن كوفى أنان نفسه كان يأمل أن تسمح الولايات المتحدة للمنظمة الدولية أن تلعب دوراً رئيسياً فى إعمار العراق ولو من قبيل حفظ ماء الوجه بعدما احتلت أمريكا العراق رغماً عنها، وإلغاء الشرعية الدولية التى تمثلها.

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن دولاً مؤثرة مثل فرنسا وروسيا والصين وألمانيا كانت تضغط لكى تتولى الأمم المتحدة عملية إعمار العراق جملة وتفصيلاً، أدركنا على الفور أن اغتيال دور الأمم المتحدة كان –منذ اللحظة الأولى- هدفاً أمريكياً و ها هو يتحقق إلى حد كبير بتفجير مقر المنظمة الدولية فى بغداد.

الهدف الثاني هو تصوير المقاومة العراقية –بعد إلصاق تهمة التفجير بها –بأنها تمثل إرهاباً عراقياً تجب مقاومته دولياً، لأنه فى هذه الحالة سوف يكون هدفاً ضمن أهداف الاستراتيجية الدولية لمكافحة الإرهاب التي وضعتها الولايات المتحدة عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بدعم منقطع النظير من جانب حلفائها وخصوصاً الدول الأعضاء فى حلف الناتو الـ ١٩.

أخطر ما فى هذا الأمر، أن الرئيس السابق جورج دبليو بوش كان أول من استخدم تعبير «الإرهاب العراقى».. جاء ذلك فى خطابه الأسبوعى الذى أعقب حادث تفجير مقر الأمم المتحدة فى بغداد عندما شدد على ضرورة مطاردة الإرهاب فى كل مكان «وخصوصاً فى فلسطين والعراق».

ولتكريس هذه الأكذوبة وهذا المصطلح الذى صكه الرئيس بوش بنفسه (أقصد مصطلح الإرهاب العراقي) خرج علينا بول بريمر الحاكم المدني الأمريكى فى العراق –وقتذاك- بتصريح رنان أكد فيه أن العراق –بعد حادث التفجير هذا- تحول إلى ساحة كبرى لمكافحة الإرهاب!.

وإذا علمنا أن الأبواق البريطانية والأمريكية فى داخل المنطقة العربية وخارجها دأبت على ترويجه، والإلحاح عليه لكي يملأ الأجواء ويصبح وكأنه شئ طبيعي، كان لابد أن نستشعر الخطر المحدق ليس فقط بالعراق وإنما أيضاً بالمنطقة العربية ككل خصوصاً إذا توقفنا أمام ما كتبه الكاتب الأمريكى توماس فريدمان حول تحول العراق –فى أعقاب حادث التفجير إياه- إلى بؤرة جاذبة لجميع أشكال الإرهابيين والأصوليين الإسلاميين المعادين للولايات المتحدة. وهو يريد أن يحرض قوات الاحتلال على اتباعه سياسة المحرقة، لأن دك العراق –كل العراق- بكافة أنواع السلاح، يصبح –والحالة هذه- من وجهة نظره –واجباً أمريكياً لأنه سيجهز ليس فقط على الإرهاب والإرهابيين

ولكن أيضـاً وربما هذا هو الأهم – على كل الرافضـين للفكر الإمبراطورى الأمريكى الذى يريد أن يفرض سطوته على العالم فى القرن الحادى والعشرين.

باختصـــار أنها أكاذيب أمريكية تأتينا من كل المنافذ ضـــمن أكاذيب أخرى تحاول اقناعنا –بالقوة الجبرية- بأن حرب احتلال العراق- هى حرب تحرير وان العراق والحالة هذه- لن يكون الولاية الـ٥٢ بعد إسرائيل –ضمن الولايات الأمريكية الخمسين، ولكن سيصبح واحة الديمقراطية فى العالم العربى، أو كما يقول (أو يكذب) فريدمان إن هذه الحرب تتعلق بقوى الغرب، وتدعمها الأمم المتحدة، وهى تهدف إلى الدفع بحكومات عربية أكثر نزاهة وانفتاحاً وتســامحاً.. بمعنى آخر أن «الأكاذيب الأمريكية» عارية ومفضوحة، بل ولها رائحة أصبحت تزكم الأنوف، لكن «أمريكا - ســيدة العالم» تصــر عليها، وتدأب على ترويجها على أنها حقائق كما يقول دونالد رامســفليد وزير الدفاع الســابق عبر وحدة التأثير الاستراتيجى التابعة لمكتبة فى البنتاجون مباشـرة، والتى يجند فيها كتاباً ومفكرين من كل المشــارب (والدول) لتقديمها إلى شــعوبها على أنها حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها!.

يبقى أن نلفت الانتباه إلى أن الحرب الأمريكية ضــد العراق لم تكن فى يوم من الأيام حرباً عســكرية فحســب وإنما هى حرب إعلامية أيضــاً والدليل على ذلك ما كشــفه كتاب صــدر حديثاً فى أمريكا بعنوان أسـلحة الخداع الشــامل حول دور شــركات الدعاية والإعلان (والإعلام) فى السياسـة الخارجية الأمريكية وخصـوصـاً بين العرب والمســلمين. فهو يتحدث مثلاً عن شــركة «راندوم» للعلاقات العامة، وينقل عن صــاحبها جون راندوم قوله أن القوات الأمريكية وحلفاءها حين دخلت إلى الكويت بعد هزيمة الجيش العراقى فى عام ١٩٩١، فإنها قوبلت بأعداد كبيرة من الكويتيين يلوحون بالأعلام الأمريكية التى ملأت شاشات التليفزيون

ولم يعرف أحد أن شـــركة «راندوم» هى التى ســـربت تلك الأعلام مسبقاً، لإضـفاء جو احتفالى على مشـهد الدخول، وكان ذلك فى إطار عقد وقعته الشركة فى وقت سابق مع وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) وقد تحدث صاحب الشركة عن عقد مماثل وقعه مســؤولو البنتاجون قبل غزو العراق، لكنه رفض الحديث عن مضـــمونه، باســـتثناء إشـــارته إلى أن العراقيين لم يكرروا «لقطة» رفع الأعلام الأمريكية عند الدخول أى بغداد.

ذكر الكتاب أيضـــاً أنه بعد حرب الخليج الثانية، وقعت المخابرات المركزية (سى.آى.أيه) عقداً مع شركة راندوم لتنظيم المعارضة العراقية للرئيس صدام حسين، قيمته عشرة ملايين دولار، وكان مدير الشـــركة هو الذى شـــكل «المؤتمر الوطنى» واختار اسمه، وهو الذى عين السيد أحمد جلبى (عضـو مجلس الحكم الانتقالى) رئيســاً للحزب، وخلال الحرب وقعت الشـــركة عقداً آخر مع المخابرات المركزية لتوزيع أخبار مغلوطة عن الحرب، وتصـــوير أفلام تليفزيونية دعائية تســـوغها وتخدم أهدافها، وكانت الشـــركة ذاتها قد وقعت عقداً مع البنتاجون قبل الإطاحة بنظام طالبان فى أفغانســـتان قيمته ثلث مليون دولار لتأســـيس وكالة أنباء أفغانية تبث أخباراً محرفة وغير صـــحيحة عما يجرى على الأرض.

من المعلومات المثيرة فى المشـــهد العراقى أن إســـقاط تمثال الرئيس السابق صدام حسين –الذى طافت صورته حول العالم- كان من إخراج وترتيب شـــركة راندوم، التى حشـــدت لذلك الغرض ١٢٣ شخصاً هللوا للسقوط وصفقوا له، وكان بعضهم من أعضاء «المؤتمر الوطنى» الذين قدموا من الولايات المتحدة بصحبة السيد أحمد جلبى!.

تحدث الكتاب أيضـاً عن شـركة «بنادور» للعلاقات العامة، وصـاحبتها إلينا بنادور التى وقعت عقداً مع مجموعة من معاهد ومراكز البحوث التى تؤيد غزو العراق لتنسـيق ظهور الخبراء فى القنوات التليفزيونية وأمام الكونجرس للهجوم على سـوريا وإيران، وتحذيرهما من ضربات أمريكية عنيفة.

هناك أيضـاً شـركة «شـاندويك» للعلاقات العامة، ومديرها جاك ليسلى، صديق بوش، وصاحب فكرة إنشاء منصب جديد هو «مساعد وزير الخارجية الأمريكية للدبلوماسية العامة» أى للعلاقات العامة، لكسـب المسـلمين إلى جانب الحرب ضـد الإرهاب، وهى الشـركة التى تقف وراء الحملة الإعلامية فى الصحف الغربية والعربية لتعبئة الرأى العام لصالح استمرار تلك الحرب وتوسيع نطاقها!.

الفصل الرابع: تزيف وتعتيم وتخويف: خصائص وتجليات

بحلول الذكرى السنوية لأحداث ١١ سبتمبر الإرهابية تستحوذ على تفكيرى/ جملة من الهواجس لم أستطع منها فكاكا فالعالم- مثلا- لم يعد أكثر أمانا كما كان يبشرنا رأس الدولة الأعظم، جورج دبليو بوش، وإن ظل يردد- وحده أن الدنيا أصبحت بألف خير، والعراق المحتل من أمريكا، أصبح – حسب زعمه- جنة للديمقراطية ولبنان الذى دمرته إسرائيل بتواطؤ أمريكى، أصبح رائعا لأن الجيش السورى قد خرج منه!!

نعم ما يقوله جورج دبليو بوش هو أكاذيب ومحض أوهام فلا العالم أصبح أكثر أمنا، ولا العراق أصبح واحة للديمقراطية ولا لبنان أصبح فتية لكن ما الحيلة ونحن نعيش فى عصر يسيطر عليه، لص بغداد بالحيل والأكاذيب معتمدا على جيش من المارينز العربى فى الميديا العربية يصفق ويهتف ويركع ويسبح بحمد آل بوش وأعوانهم من أباطرة المحافظين الجدد!!

ورغم المداد الذى سال وسوف يسيل حول أحداث ١١ سبتمبر إلا أننى مازلت مقتنعا بما كتبه عشرات المراقبين والمحللين فى فرنسا مؤكدين أن ١١ سبتمبر صناعة أمريكية وإلا لماذا كان هذا العنف الذى واجهه الكاتب الفرنسى تيرى ميسان مؤلف كتاب« الخديعة الكبرى» ولماذا تدخل السفير الأمريكى السابق فى القاهرة مُحتجا على الصحافة المصرية التى أفسحت المجال رحبا لعرض كتاب «الخديعة الكبرى» والتعليق عليه.

وكلنا يذكر أن غضبته كانت أشبه بالغضبة المضرية حدة، وقسوة وعنفوانا! إلى حد أنه كتب تعليقا نشرته الصحف فى مصر كان أشبه بخريطة طريق للصحافة عليها ألا تخرج عنها!! فحذر وتوعد وطلب من أصحاب الأقلام والعقول الالتزام!

والسؤال الآخر هو التالى: إذا لم تكن ١١ سبتمبر صناعة أمريكية فلماذا تدخلت السفارة الأمريكية في دولة الإمارات العربية وأغلقت بالضبة والمفتاح مركز زايد للأبحاث بعد أن دعا الكاتب الفرنسي تيرى ميسان وناقشه حول كتابه الخديعة الكبرى وصدرت هذه المناقشات فى كتاب نفذت طبعته الأولى فى ساعات قصار! نعم وألف نعم نحن أمام عصابة تحكم العالم من البيت الأبيض هى عصابة المحافظين الجدد، ووسيلتهم هى الخداع والتضليل والجوسسة الأمر الآخر الذى يطاردنى هو أن تنظيم القاعدة الذى أسسه أسامة بن لادن بمساعدة أمريكا وهو تنظيم مخترق أمريكيا، فالثابت عملا أن أمريكا ليست من مصلحتها القضاء على هذا التنظيم وإنما المصلحة كل المصلحة أن تمتطيه وتقوم بتوظيفه لصالح مُخططاتها الاستعمارية الهادفة إلى السيطرة على العالم.

ولذلك فإن أسامة بن لادن يجب أن يظل حيا ولو افترضنا أنه قد مات فأمريكا وحدها هى التى ستصر على أنه لا يزال على قيد الحياة.

ثم هى وحدها التى تتحدث اليوم عن أجيال متعاقبة تم تفريخها من داخل عباءة تنظيم القاعدة.

ولست أرى أى غرابة فى ذلك فأمريكا هى التى خلقت تنظيم القاعدة وتعرف جيدا هيكله من الداخل في كل بلدان العالم، لأنها أولا وأخيرا هى التى زرعته هنا وهناك وفى كل مكان.

وقناعتى هى أن الظواهري والتابعين له أشبه بالدمى التى تحركها أمريكا حتى هذه اللحظة وإلا فما معنى أن يبث الظواهري شريطا مسجلا يدعم فيه حسن نصر الله إبان الحرب الإسرائيلية على لبنان؟ المعنى هو رغبة أمريكا الربط بين نصر الله وبن لادن أو بين حزب الله وتنظيم القاعدة لتتولد قناعة لدى الرأى العام العالمى أن حرب إسرائيل على حزب الله مشروعة مثلما كانت حرب أمريكا على تنظيم القاعدة مشروعة بل ومطلوبة!

سؤالى هو من الذى حرك الظواهرى لفعل ذلك؟ إنها واشنطن التى لا شك فى أنها جندت رجالا حول الظواهرى ليتولوا مهمة إقناعه بأن يفعل كل ما يخدم أمريكا.. من حيث أنه يتصور خطأ أنه يكافح الأمريكان!

ولنتذكر معا شريطا كان أطلقه بن لادن يطلب من الفرنسيين السماح للمسلمات المقيمات فى بلاد الفرنجة بارتداء الحجاب ولم يكن تزامن بث هذا الشريط مع القبض على صحفيين فرنسيين فى العراق من قبيل المصادفة بالطبع.

أريد أن أقول حسب هواجسي أن تنظيم القاعدة الذى تصوره أمريكا على أنه فزاعة تخيف به القاصى والداتى أصبح أشبه بالخاتم في أصبع الأمريكان يحركونه بسهولة ويسر، وسوف تؤكد لنا الشرائط المنتظرة فى المرحلة المقبلة أن هواجسي صادقة وحقيقية.

ضمن هذه الهواجس أن الرأى العام العالمى هذا المارد الجبار الذى تتحدث عنه الكتب الأكاديمية ليس فى أرض الواقع سوى مجرد طفل لا حول له ولا قوة تقنعه أمريكا بما تريد فيصدق على الفور، وتقوده في هذا الاتجاه فلا يفترض ولا يتأفف ولذلك تصدق عليه العبارة التي يحفظها المحافظون الجدد وهى أن بمقدورهم أن يصنعوا الرأى العام ويشكلونه كما يصنع الزبادى والشيكولاتة.

وواقع الحال يؤكد فعلا لا قولاً أن السياسة الأمريكية لا تضع في حسبانها لا من قريب ولا من بعيد هذا المدعو الرأى العام لأنها تملك الميديا وتمارس من خلالها عملية تضليل شامل لكل كبيرة وصغيرة.

وقديما قال يوشكا فيشر وزير خارجية ألمانيا السابق، حتما سيأتي يوم نكشف فيه أن الحقائق التى أخفتها أمريكا على العالم مخجلة وتكاد تفقأ العيون!

أيا كان الأمر واشنطن فى أحداث ١١ سبتمبر لا تزال تمارس إرهاب الدولة وتفتك بكل من يهدد حلم هيمنتها على العالم ولابد أن نعترف أنها بزعم مكافحة لإرهاب نجحت فى أن تجمع العالم كل العالم تحت رايتها، وأطلقت مشاريعها الاستعمارية.

الشــرق الأوســط الكبير، ثم الشــرق الأوســط الجديد، وتمتد أقدامها إلي مشـــارق منطقتنا ومغاربها تزرع الفوضـــى البناءة لتحصد الثمار بالتعاون مع إسرائيل ولابد أن تحسب ضمن قائمة نجاحاتها خيوط التبعية التى ربطت المنطقة العربية بها، بحيث بات الجميع يتجهون فرادى وجماعات نحو واشـــنطن يطلبون الدعم أو الرضا وهذا أضعف الإيمان.

ومن الهواجس أن الأزمات التى تغرق فى بحارها بلادنا هي من صنع أمريكا، فالدماء العربية البريئة تسيل فى العراق بأسلحة أمريكية« والخراب لحق بلبنان من تأثير القنابل الذكية الأمريكية، والسـودان انفصـل عنه الجنوب بأيدى أمريكية واليوم تسـلخ عنه دارفور عنوة والبقية تأتى.

باختصار أمريكا الإرهابية تجنى وحدها ثمار الإرهاب ونحن ندفع الثمن أرضا وسماء وشعوبا ونظما.

مسرحية أمريكية هزلية اسمها اغتيال الزرقاوى!

فى كل مرة أتابع وأشاهد ما يحدث في العراق وأستمع إلى تصريحات الوزراء العراقيين تقفز إلى ذهنى على الفور العبارة التى تفوه بها ذات يوم أحمد الجبلى ويقول فيها نحن نعمل لصالح كبريات شركات النفط العالمية!!

وعندما أرى (نورى المالكى) رئيس الوزراء العراقى لا أجد فروقا كبيرة بينه وبين علاوى، أو بول بريمر الحاكم المدنى الأمريكى للعراق، أو جارنر خبير الإرهاب الدولى الذى أسند إليه البيت الأبيض أمر العراق لبعض الوقت خصوصا بعد أن احتلته القوات الأمريكية.

بمعنى آخر نحن أمام وجوه مختلفة تعبر.. فى وقاحة.. عن حالة احتلال أمريكى غاشم، وليس يهم كثيرا أن كانت وجوه عراقية «متأمركة» أو أمريكية «متعرقة» فالكل سواء.

وأشهد أنى لم أملك نفسى من الدهشة عندما وقف المدعو «نورى المالكى» أمام الكاميرات يعلن مقتل الزرقاوى ويؤكد أن قوات الأمن العراقية سوف تواصل ضرباتها القاتلة لكل الزرقاويين!!

وكأنه يريد أن يوهمنا بأنه قواته«العراقية» كان لها دور فيما حدث للزرقاوى!!

أكذوبة بدأ بها المدعو «نورى المالكى» فترة رئاسته للحكومة العراقية.. لتتوالى- لاحقا- بقية الأكاذيب!

وعلينا- داخل العراق وخارجه- أن نصدق بل وان نبارك هذا الانتصار المزعوم.

وغـاب عن «ذهن» المـالكي أن الصـغير«قبـل الكبير» والقاصـي «قبل الدانى» يعلمان أن الحاكم الفعلى فى العراق هو قائد القوات الأمريكية- وما حكومة المالكي بجميع«شـخوصـها» سوى «ماريونيت» تتحرك بخيوط أمريكية.

أقام المالكي ونفر من وزرائه اهازيج الفرح بمقتل الزرقاوى ظنا منهم أن «الأمن» سـوف ينزل ضـيفا عليهم كما سـتسـتقر الأمور.

وأقول هيهات أن يحدث ذلك- فما دام هناك جندى أمريكي واحد «وليس ١٣٥ ألفا» فى العراق، فإن أرض الرافدين سـتظل فى حالة تمرد ورفض ومقاومة.. والدرس المباشر الذى أشك فى أنه غاب عن ذهن المالكى ورفاقه هو الوهم الذى روجه الرئيس الأمريكي السـابق جورج دبليو بوش عندما قال يوما: أن العراق سـوف يتحول- بعد سـقوط نظام صـدام حسـين- إلى واحة غناء للديمقراطية والأمن وهو ما لم يحدث.. ولن يحدث!

وكما ضحك العالم- كل العالم- من جورج دبليو بوش فها هو يضـحك اليوم- ملء شـدقيه- من نورى المالكى الذى يكذب، ويضـلل، ويختال مقلدا من اختاره حاكما«لبعض الوقت» على العراق.. دعونـا نتفق«أو نختلف» في قليـل أو كثير حول منهج الزرقاوى وما اختاره لنفسـه من طريق لكن المحقق أنه أحد رجال المقاومة الذين يرفضـون الاحتلال الأمريكى.. شـأن كثيرين داخل العراق وخارجه.

والشـيء الأخر الذى أود أن الفت الانتباه إليه هو هذا الإخراج المسـرحى الذى ظهر به حادث اغتيال الزرقاوى، وهو إخراج أمريكى بارع اعتدناه طوال الفترة الماضـية من ثلة فى رجال الاسـتراتيجيات والميديا الأمريكية الذين أخرجوا مسـرحيا إسـقاط أحد تماثيل صـدام حسـين وأطلقوا المسـاجين على متحف بغداد وصوروا بإتقان الحفرة التى قيل أن صدام حسين كان يعيش فيها.

وما يدعم هذا الاعتقاد- الذى يلح فى نفوس كثير من المحللين- هو توقيت الإعلان عن مقتل الزرقاوى وهو توقيت صعب بالنسبة للحكومة العراقية التى ظلت لعدة أشهر تتأرجح بين التشكيل وعدم التشكيل.. وكان لابد- من وجهة نظر أمريكا- أن يتم إخراج« حدث جلل» يكون أشبه بثعبان موسى الذى يأكل كل الثعابين.. وهو ما حدث بالفعل، حيث انشغل الناس- وتم تشغيل الميديا عمدا- بمقتل الزرقاوى ورفاقه.. لتنتهز الحكومة العراقية الفرصة لإعلان اختيار الوزراء الذين كانت حقائبهم محل خلاف، ثم يكذب نورى المالكى مؤكدا أن قوات الأمن العراقية«الباسلة!!» هي التى قامت بعملية الاغتيال.. وهو افتراء يماثل افتراءات أمريكية كثيرة ويذكرنا بأكذوبة أسلحة الدمار الشامل التى ظنوا- وكثير من الظن أثم فى هذه الحالة- أن العراق يمتلكها ثم تمر الأعوام وينسى الناس- بفعل الميديا الأمريكية والأوروبية.. ما كان يقال عن ملكية صدام حسين لهذا السلاح الفتاك.

ثم تتوالى الأحداث، فيموت من يموت، ويختفى من يختفى وتتقلب الأمور، وتجب الأحداث«بعضها بعضا» ويدفع اللاحق بالسابق، وتعطى وقائع اليوم على وقائع الأمس.. ليعتاد الناس على حالة الاحتلال وسقوط الضحايا، وانقسام أبناء البلد على بعضهم البعض فتعلو صرخات المعارضين، وتتعمق الخلافات بين التيارات السياسية و...وهى صورة تشبه كثيرا ما يحدث منذ أكثر من نصف قرن فى فلسطين المحتلة.

وهكذا نجد أنفسنا أمام سيناريو قديم/ جديد.. على أية حال.. ولهما كانت الدعاية الأمريكية أو المتأمركة- فالثابت حقا أن أمريكا تريد أن تتسّيد العالم بالحيل والأكاذيب، واستخدام أكذوبة الإرهاب.. وهى تطلب من حكومة الدول العربية أن تقتدى بحكومة المالكى في العراق فتتجسس على شعوبها ثم تعطى بيانات- حلالا زلالا- لواشنطن« بدعوى التنسيق معها في مكافحة الإرهاب..! على أن تتولى أمريكا- بعد ذلك- تصفية جيوب الإرهاب، فتضرب بطائرتها فى أعماق الأرض العربية وعلى الحكومات أن تصفق وتصفق وهى ترى سيادتها تُنتهك واستقلالها يُهان.. وقرار ها الوطنى لا يساوى الحبر المكتوب به.. المهم أن تبقى أمريكا سيدة العالم ولا شيء يهم بعد ذلك!

«إمامة المرأة» وأحاديث الإفك الأمريكية!

فجأة اكتشفت واشنطن أن شعوب المنطقة العربية والإسلامية هى «الابن الضـــال» الذى يحتاج إلى «عناية»و«هداية» فحكامها وقادتها يجب أن «يتغيروا» أو «يرحلوا» ومناهجها التعليمية يتحتم تحديثها أو«عصـــرنتها» وأفكارها بالية، ولابد من ســحقها تحت الأقدام والاســـتعاضـــة بأفكار«نيولوك» جديدة وبراقة ومشرقة!

وفى إطار هذه«الرســـالة الإصـــلاحية» التى هبطت على رأس وقلب جورج دبليو بوش بين يوم وليلة، وكان عليه أن يصدح بها ولا يخفيها، وأن يفرضـــها فرضـــا إن لم يكن بقوة الإقناع فبقوة السلاح!!

أقول فى هذا الإطار: بدأت قعقعة معركة«إمامة المرأة» تصـــم الآذان من منطلق أن«البنت زى الولد ومش كمالة عدد!» وليس خافيا أن هذه الدعوة تفضح- ضمن ما

تفضح- كراهية أمريكا للإسلام والمسلمين، وتؤكد مجددا أن ما كان جاء على لســان الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش بشــأن الحرب الصليبية لم يكن زلة لسان (كما قيل وقتئذ تفسيرا لذلك). وإنما كان توجها عاما حاكما لسياسة أحفاد العم وسام مع معتنقى الدين الإسلامى فى أى مكان، وتبرهن- فى الوقت نفسه- على ما تردد حول أمريكا لتغيير مناهج تدريس الدين فى المدارس داخل أوطاننا لم يكن عبثا، وإنما هو حقيقة تريدها أمريكا، وتخطط لها منذ زمن، وهذا معناه أننا يجب أن نأخذ على محمل الجد ما يثور بشأن الفرقان الجديد الذى يريد الأمريكيون فرضه علينا «قرآنا» مُعدّلا بعد حذف الآيات التى لا تروقهم أو تثير حفيظة حلفائهم الاستراتيجيين فى المنطقة، وهم اليهود والصهاينة!

وبالصرخة المدوية التى انطلقت من أمريكا، والخاصة بإمامة المرأة فى الصــلاة أصــبحنا نجد أنفســنا أمام تعليمات يجب مراعاتها، وأوامر لابد من الانصــياع لها، بهدف إشــعال الجدل مُحتدما بين فئات وطوائف الشعوب العربية والإسلامية لاستنفاد قوتها فيما لا يفيد ولا طائل من ورائه، فالقاصـــى والدانى يعلمان حق العلم أن قضـية بهذا القدر من السطحية والتفاهة لا مكان لها في علم الكلام الإسـلامى، فالمرأة تعمل قاضـية، وفقيهة، وتعتلى مقاعد المحاكم العليا وتؤلف الكتب الدينية، وتدلى بدلوها اجتهادا فى أمور الدنيا والدين، وتؤم النسـاء فى المسـاجد، ثم هى تحتفظ باسمها بعد الزواج مُستقلا عن زوجها، وهى تدير العمل، وترأس موظفين رجالا ونساء وتتاقضى راتبها (لا يقل مليما واحدا) عن الرجل المناظر لها فى الوظيفة أو الموقع نفسه، وهو ما لا يحدث فى قلاع الـديمقراطيـة في أمريكـا وأوروبـا، فـالمرأة يتم تغيير اسمها فور عقد زوجها، فتترك اسم والدها لتحمل اسم الزوج في صورة تذكرنا بعصر العبيد، الذى لعبت فيه أوروبا دور الوسيط والمروّج، ثم أن المرأة لا يمكن أن تتســاوى بالرجل فى الراتب الذى تتقاضـــاه، لا لشـــيء إلا لأنها أنثى! ايا كان الأمر فالأحق بالإصـلاح هو حال المرأة فى أوروبا وأمريكا، أما المرأة العربية والمســلمة فهى تتمتع بكثير من الحقوق، وتناضـــل فى ســـبيل المزيد، ولكن من منطلق رؤانا التى يشـــترك فى تكوينها ديننا، وتقاليدنا، وأحوالنا الاجتماعية، والتى فى إطارها لا تطرح- لا من قريب ولا من بعيد- مســألة إمامة المرأة للرجال لأنها لا تثير إشـكالية من أى نوع وكأنها- كما يقول علماء المنطق- مثل الفيل الأبيض لا وجود لها! ومن ثم تصبح إشكالية، فارغة من المعنى، ومن العبث إضاعة الوقت فى الحديث فيها أو حولها.

والصحيح هو أن تتواصل عجلة الإصلاح والتقويم وتمتد لتشمل جميع نواحى الحياة وتتطرق- بالفعل لا بالقول- إلى مواطن الضعف فى مسيرتنا بتفعيل منطق الأصالة والمعاصرة، وإعادة قراءة تراثنا في ضوء المستجدات، والإيمان بقيمة العمل، والاعتزاز بما حققته الحركات الوطنية في بلادنا، وربط الماضى بالحاضر من خلال دعوات الإصلاح التى قادتها قامات كبرى فى حجم قامة الإمام محمد عبده، والطهطاوى، وقاسم أمين، وطه حسين، وعباس العقاد.

إن الحديث عن إمامة المرأة للرجال فى الصلاة، هو حديث إفك تطلقه الميديا الأمريكية، وتلوكه ألسنة المتأمركين (بين ظهرانينا) صباحا ومساء، مصورين أياه على أنه«الحق» الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يبقى أن نذكر أن الغرب (وأعنى هنا أمريكا وأوروبا) هو من أكثر الأطراف فهما لديناميـة الدين الإسلامى، ورجالهم من المستشرقين كانوا الأسبق في معرفة هذا الدين، ووضعوا أيديهم بحق على مواطن القوة والعظمة فيه.

لذلك سوف يظل الإسلام فزاعة تخفيف الغرب، وتقض مضاجع حكامه أمثال بوش، ورجاله، وما إذكاء نار الفتنة بين المسلمين مرة باسم الطوائف (شيعة وسنة)، ومرة ثانية بدعوى عصرنة الإسلام، ودفع المرأة للثورة والتمرد، ومرة ثالثة بزعم ضرورة الحراك الاجتماعى، والثورة على القديم، إلا مخطط إمبريالى أمريكي يستهدف أمرين: الأول هو تكريس مفهوم أن الإسلام ضد التقدم والمدينة، وهى أكذوبة ترجع إلى عصور خلت وحاربها رواد التنوير فى مصر والعالم الإسلامى منذ زمن.

والثانى هو استنفاد قوة المسلمين فيما لا يفيد، وإثارة الفتن والنعرات العرقية والدينية، والخوض فى حديث عقيم حول قضايا هزلية من نوع«إمامة المرآة»!

رؤساء يتجسسون (على شعوبهم) لحساب واشنطن!

ألم يكن غريبا ألا يصــدر تصــريح واحد عن أى رئيس دولة في المنطقة العربية يشــجب أو يدين أو حتى يســجل ملاحظة حول التعذيب الذى وقع على آلاف المســاجين الذين يُزج بهم ظلما وعدوانا في أبو غريب (فى العراق) وجوانتانامو (في كوبا).. هذا الســؤال- الذى يبدو بريئا طرحته قبل فترة صــحيفة لوموند الفرنسية لتخرج باستنتاج مؤداه «وراء الأكمة ما وراءها» وأن هناك شيئا من نوع ما يقرع الرؤوس!!

. واعترف أن هذا الســؤال كان طرحه أكثر من شــخص فى الدوائر المختلفة فى مصــر والعالم العربى خصــوصــا أن الاحتجاجات والإدانات التى ســمعنا عنها لم تصــدر إلا عن المتظاهرين الذين جابوا لبعض الوقت شــوارع المدن العربية الكبري وهو ما يعنى أنها كانت احتجاجات شــعبية وليســت رسمية..)

ولقد هالتنى إجابة وقعت عليها بطريق المصــادفة ومنســوبة إلي بعض أحد المراكز الباريسية المتخصصة فى شئون الشرق الأوســط تقول أن ســبب امتناع «الرؤســاء» عن التعليق على الجرائم التى ترتكب فى حق المواطنين العرب فى أبو غريب وجوانتانامو هو أنهم «متورطون» فهم الذين أرشــدوا «على هؤلاء المســاكين، لتضــعهم الإدارة الأمريكية وراء القضــبان وتفعل فيهم ما يندى له الجبين خجلا» على نحو ما فضــحت الصــور التى انتشــرت كالأوبئة عبر النت- والصــحف، والفضائيات!!

..أقسم بالله ثلاثا أننى كدت أبكى من فرط بشاعة هذا الأمر- إذا ما تبين صــدقة- لأن أكثر النظم استبدادية لا يمكن أن ترتكب مثل هذا الجرم فى حق شــعوبها.. بل أن كتاب الأمير الصــغير لميكيافيللى الذى «أقر جملة من قواعد الديكتاتورية»

بزعم أن «الغاية تبرر الوسيلة» لم يسقط في هذا المنحدر، لأنه عندما أعطى الحاكم (أو الرئيس) سلطات مطلقة، فلكى يخدم بها شعبه، وليس لكى يتجسس عليه لصالح القوة الباغية!

والشيء نفسه ينطبق على كتاب لا يقل هولا وبشاعة عن «الأمير» وهو بروتوكولات صهيون«الذى سن قوانين لإفساد العالم ولكن أن يكون «الرابح» أو القائم»الوحيد- فى النهاية- هم اليهود أى أنه استثنى اليهود من الإفساد!

.. بكلمة أخرى: إن أفظع ما في هذا الأمر أن رؤساء المنطقة يعملون موظفين لدى الإدارة الأمريكية بدرجة«مجندين» أو عساكر درك سريين «يتلصصون على مواطنيهم ثم يقدمون قوائم بأسماء بعضهم لكى تتولى واشنطن معاقبتهم بالطريقة التى تريد.. (ونذكر الشروحات الصادرة عن نفس المركز البحثى فى باريس أن شيئا كهذا وقع مع الحوتى »المتهم بالإرهاب والذى اغتالته القوات الأمريكية أثناء سيره فى بلده (اليمن) بعد أن وصلت المعلومات تكشف «مكان» وجودة «وزمان» تحركاته..

وتكرر المشهد ذاته مع أشخاص فى الجزيرة العربية والأردن وتونس..

ويتردد أن هناك من محاولة أمريكية «لتقنين» هذه الجاسوسية من قبل الرؤساء تحت ستار مراكز مكافحة الإرهاب التى تتحمس لها بعض الدول، وتخصص لها ميزانيتها الضخمة والتى لن يخرج عملها عن رصد تحركات ونشاطات المواطنين (من الأفراد، أو الشركات) وتوفير قاعدة بيانات كاملة عنهم تستخدمها واشنطن في الوقت الذى تحدده بدعوى تشكيل «جبهة عالمية» لمكافحة الإرهاب فى العالم..

والغريب أن أمريكا ترفع«فزاعة» الوعيد والتهديد فى وجه كل دولة تتقاعس عن تقديم العون- أو ترفض فتح حدودها للمارينز الأمريكى لكى يبحث عمن يشاء داخل أراضيها أو يحقق مع من يشاء من مواطنيها!

«شاق على المرء أن يصدق أن أمرا كهذا يحدث فى عالمنا العربى- فالمواطن أصبح في غير مأمن، وحاله أشبه بحال من تقوده أقداره التعسة لكن يقع بين «مطرقة» أمريكا الفتاكة، «وسندان» النظم السياسية المستبدة!

وتذكر الوقائع الغربية أن بعض القادة لا يكتفون بالتجسس على مواطنيهم ولكن أيضا يتجسسون على بعضهم البعض.. فاحدى القمم العربية وهذه واقعة يعرفها الكثيرون كانت تُنقل وقائع جلساتها السرية مباشرة إلى إسرائيل عن طريق أجهزة تنصت دقيقة تم تركيبها فى قاعة الاجتماعات (مساعدة مهندسين إسرائيليين!!)

ويقال أيضا أن المناضل الفلسطينى مروان البرغوتى راح ضحية واحدة من هذه الصفقات التجسسية (على مستوى عال) لكى يصبح وراء القضبان كالأسد الجريح.. بل أن صدام حسين نفسه قد وشى به من دشى، فوجد نفسه بين عشية وضحاها داخل حفرة لا تزيد مساحتها عن بضعة فراسخ.

(اللافت للنظر أن معاركنا مع الغرب الاستعمارى قد خسرناها جميعاً دون أن نحارب.

فالسماسرة وتجار الأسلحة الفاسدة أفقدونا حرب ١٩٤٨، «وجوسسة» البعض على قواتنا المسلحة أضاعت منا حرب ١٩٦٧، وهو ما يعنى أننا لم نحارب وإنما كنا ضحية جواسيس حكاما ومحكومين..

باختصار لا أنا ولا غيرى يريد أن يصدق أن ما يتردد حول تآمر حكام المنطقة مع الأمريكان على الشعوب التى تصبح- والحالة هذه- أشبه بمن يستجير من الرمضاء بالنار!

أسامة بن لادن.. هل حقا لا يزال حيا!

لماذا لا نأخذ التصريحات المنسوبة إلى زعيم القاعدة أسامة بن لادن مأخذ الجد، ونطرح- بقوة- مصداقيتها للنقاش؟

هذا السؤال يُلح على خاطرى الحاحا شديدا في كل مرة أقرأ فيها تصريحا لهذا الرجل الذى نسينا- فى زحمة الأشياء- أنه صناعة أمريكية محضة- فلقد ظل لسنوات طويلة طفلا«مدللا» لأجهزة المخابرات الأمريكية التى دربته وسلحته وأطلقته مع رفاقه (ليكافح) ضد الاحتلال السوفيتى في أفغانستان.. وبعد أن رحل الجيش الأحمر وانتهت مهمة أسامة بن لادن (والأفغان العرب) انقلب السحر على الساحر..

. ثم هناك سؤال ثان يتولد- بالضرورة- من السؤال السابق وهو: هل صحيح أن أسامة بن لادن لا يزال على قيد

الحياة- وكيف- في هذه الحالة- استطاع أن يفلت من الجيوش الأمريكية التى ظلت لأسابيع متتالية تدك (جبال تورا بورا) فى أفغانستان دكا بكل ما أوتيت من قوة..

وهل ستدفع الشجاعة (أمريكا يوما) فتعترف فيه بموت أسامة بن لادن؟.

(فى ظنى أن التصريحات التى تزعم وسائل الميديا أنها صادرة عن أسامة بن لادن ليست أكثر من محض افتراء وأكاذيب لا أساس لها من الصحة..

.. وبالقياس ذاته أقول أن أمريكا لن تعلن- على الأقل طوال فترة حكم المحافظين الجدد- وفاة أسامة بن لادن.. لأنها تجنى الكثير من وراء (أسطورة حياته) واحتضانه في جبال أفغانستان. ودعمه لكل الحركات الاحتجاجية الأمريكية.. بمعنى أنها لو أعلنت يوما أنه قد مات- فسوف تخسر الكثير والكثير.. اللهم إلا إذا اعتمدت فى ذلك على الجيل الثانى من الإرهابيين.

ومن ثم فالضرورة الأمريكية تحتم أن يظل حيا، ويصدر عنه بين وقت وأخر التصريح تلو الأخر.. لتصطك أسنان العالم خوفا وهلعا..

وهذا الظن قريب من الصواب- لأننا لو تذكرنا أن حلم أمريكا في قيادة العالم لم يتحقق إلا عبر بوابة ما يسمي بمكافحة الإرهاب.. وكلنا يذكر أن واشنطن سعت ألف مرة لإقناع أوروبا بحقها في القيادة لكنها لم تفلح حتى الآن..

وأبدت مرونة من نوع خاص عندما وصفت مشروع مارشال«لإنقاذ أوروبا بعد الحرب العالمية- وكذلك عندما ساعدت أوروبا لمواجهة الطاعون النازى. والطاعون الشيوعى.. ورغم ذلك لم تسلم أوروبا لها القيادة..

ولم يكن مصادفة «أن تتحدث صحيفة لوموند الفرنسية فى اليوم التالى لوقوع أحداث ١١ سبتمبر بعنوان كبير يقول: نحن جميعا أمريكيون..!

وتحدث آخرون عن ضرورة تفعيل البند الخامس فى معاهدة حلف الناتو الذى يقول: أن أى اعتداء على دولة عضو هو اعتداء على جميع الأعضاء.

سبب أخر يدفعنى إلى الاعتقاد بان أمريكا تحرص على أن يظل أسامة بن لادن حيا هو أنها تبرع فى استخدامه كفزاعة تخيف به الجميع.. وأمام التلويح به عبر تصريحاته النارية والكارهه للحكام العرب والمسلمين- تضمن أمريكا ولاء النظم المختلفة لها.. كما تضمن أن تتبارى القيادات المختلفة فى تقديم كافة المعلومات عن المشتبه فيهم بين أفراد شعبها.. ولذلك يحلو للبعض أن يقول أن استراتيجية مكافحة الإرهاب جعلت حكومات العالمين العربى والإسلامى تعمل«جواسيس» ويبرهن هؤلاء على صدق هذا الظن بالمراصد التى تقيمها هذه الدول (أو المؤتمرات التى تعقدها بين وقت وآخر) تحت مسمى مكافحة الإرهاب..

ثم هناك سبب إضافي يتعلق بمضمون التصريحات المنسوبة إلى أسـامة بن لادن.. إذ يثبت أنها تصب جميعا فى صـالح أمريكا.. حدث هذا عند صدور تصريحات تدعى أنها تساند حسن نصر الله وحزب الله، أو تدعم الإخوان المسلمين فى مصر- أو تساند حماس فى الأراضى الفلسطينية.. ولا شك أن تحليل مضمون هذه التصريحات يؤكد أنها تثير سخط الكثيرين ضد أعداء أمريكا أو على الأقل من تناصبهم العداء .. ونذكر جميعا أن أسامة بن لادن- بحسب هذه التصريحات العجيبة- كان يدعم صدام حسين.. فيتأكد الزعم الأمريكى بأن صلة ما تربط بين صدام وتنظيم القاعدة (وهو ما لم يثبت حتى هذه اللحظة!)

..ثم هناك سبب رابع يدعم الظن بأن أسامة بن لادن وتصريحاته ليس أكثر من أداة فى يد أمريكا تحقق بها مآربها ويشرحه السؤال التالى:

لماذا لم تنفذ القاعدة- حتى هذه اللحظة عملية إرهابية واحدة داخل إسرائيل أنه سؤال يسنح في النفوس ويلح على الخاطر ويؤكد أن بن لادن سيظل حيا- لأن فى حياته تكريس لمنطق الهيمنة الأمريكية.. التى تتخذ منه ستارا يخفى تحركات واشنطن نحو السيطرة وفرض النفوذ..

باختصار: لقد اعتدنا أن نبتلع الطعم الأمريكي، ونستسلم للمغالطات التى تروجها الميديا الأمريكية ونسينا أمام هذا الزيف أن الإرهاب صناعة أمريكية.. تؤكد ذلك الوقائع فى العراق وأفغانستان ودارفور- كما يقسم على صحة ذلك المفكر الأمريكي ناعوم تشومسكى الذى يعد على أن أمريكا هى أكبر دولة إرهابية فى العالم، ويضم الكاتب الفرنسى المعروف تيرى ميسان صوته إلى صوت تشومسكى ويقسم بأغلظ الأيمان أن أحداث ١١ سبتمبر هى الخديعة الكبرى!

أقسم أن تنظيم القاعدة «مخترق»أمريكيا!

.. فى متابعتنا (شـــبه اليومية) لما يصـــدر عن تنظيم القاعدة الإرهابى من بيانات وتصـريحات سواء من قطبه الأول (أسامة بن لادن) أو قطبه الثانى أيمن الظواهرى ننســـى أن هذا التنظيم هو فى الأصل- فكرة أمريكية محضة- وأن جميع شخوصه الذين يملؤون الشـــاشـــات والفضـــائيات «مُهددين ومُتوعدين» كانوا تلاميذاً فى مدرســـة المخابرات الأمريكية العريقة تعلموا على أيدى أساطينها من (ضباط الأمن والجوسسة) فنون القتل والذبح وسفك الدماء..

نعم ننســـى كل ذلك، ونلهث وراء الميديا التى تحرك معظم خيوطها (فى بلادنا وخارجه) مجموعة أمريكية أو متأمركة ونتصـــور أن أمريكا بالفعل جادة فى صـــدامها مع من تســـميهم بالإرهابيين مع أننا لو أمعنا النظر فى خطابات وتصـــريحات رموز الإرهاب العالمى لاكتشفنا عجبا!!

فالرسالة السياسية التى تتضمنها هذه التصريحات من حيث المضمون.

لا تخدم غير الســـيد الأمريكى.. كما أن المتأمل فى توقيت إذاعة هذه البيانات سوف يدرك على الفور أنه توقيت يخدم- بشكل مباشـر وفاعل- المخططات الأمريكية وهو ما يجعلنى أجزم (بل أقسم) أن هذا التنظيم الذى يدين (بقضه وقضيضه) إلى الأمريكان ليس أكثر من أداة فى يد الولايات المتحدة تحقق به جزءاً من إســـتراتيجيتها الرامية إلى الهيمنة ووضع اليد بالقوة على مُقدرات النفوذ والسلطة فى العالم..

ومن يك فى شـــك مما أقول فليشـــرح لى معنى أن يربط تنظيم القاعدة فى العراق بين إطلاق سراح بعض الرهائن الفرنسيين وبين سماح فرنسا للبنات المسلمات بارتداء الحجاب!

.. أو معنى أن يتحدث فجأة أيمن الظواهرى عن دعمه لحزب الله وحسن نصر الله مع أنه لم يثبت- فى أى وقت من الأوقات- أن ثمة صلة أو تعاطفا بين التيارين والرجلين..

.. أو معنى أن يتحدث أسامة بن لادن فى الذكرى الخامسة لأحداث ١١ سبتمبر مشددا على ضرورة مواصلة الكفاح ضد الأمريكان والغرب، وضربهم فى عقر دارهم..

أو معنى أن يصرح أيمن الظواهرى (الرجل الثانى فى تنظيم القاعدة كما نعرف) بأن حربه مع الأمريكان لن تنتهي وتوجيهه اتهامات بالجملة إلى بابا الفاتيكان مؤكدا أن تورطه في تعليقات معادية للإسلام ولنبيه الكريم إنما يؤكد أن حربا صليبية تشن- فعلا لا قولا- على المسلمين.. ثم تناوله لقضية (دافور) ورفضه إرسال قوات دولية إلى هناك..

.. أقول- وألفت الانتباه سريعا- إلى أن كل هذه المواقف التى يعبر عنها (تصريحا) تنظيم القاعدة لا يخدم غير الأمريكان الذين أقاموا إستراتجيتهم الخاصة بمكافحة الإرهاب على اعتبار أن (القاعدة) تمثل تهديدا لأمنهم القومي.. وهى عندما تهدد بضرب أمريكا من الداخل- وتقاوم مخططاتهم الاحتلالية فى الخارج، وتقف على طرفى نقيض مع المواقف الأمريكية..

كل ذلك إنما يصب فى النهاية فى رصيد الإدارة الأمريكية التى رأت- وهو ما يحدث بالفعل- أن تبنى مجدها على ما يسمى باستراتيجية مكافحة الإرهاب..

.. وهنا قد يطيب لى السؤال التالى:

هل من مصلحة أمريكا اليوم أن تعلن وفاة أسامة بن لادن أو انتهاء خلايا تنظيم القاعدة؟.

بالطبع لا لأن هذا الرجل وتنظيمه ينبغى أن يظلا فزاعة تخيف به العالم- فليس من قبيل المصادفة أن أى حادث عارض يجرى فى جنوب أفريقيا- أو هاييتى أو سيبيريا لابد أن ينسب- على الفور- إلى تنظيم القاعدة.. بمعنى آخر أن مصلحة واشنطن أن يظل هذا التنظيم (بكافة رموزه وأجياله المتعاقبة) باقيا لتظل فرائص الدول فى أقاصــى الدنيا وأدناها ترتعد خوفا منه.. ومن ثم لا تتردد فى أن تطلب الحماية من (سيد العالم).

.. فى إطار هذه الرؤية الأمريكية لدور ووظيفة بن لادن و(تنظيمه) يتعمد رجال الأمن والجوسسة الأمريكيون. استحضار (أسامة بن لادن) أما فى صورة المريض الذى يعانى مرضا عضالا وإما فى صورة المتوفى الذى أجهز عليه مرض التيفود، وإما في صورة المتحدث معلقا على أحداث تجرى هنا وهناك فى المنطقة والعالم..

.. ولا يخالجنى شك فى أن أظهار تنظيم القاعدة عبر أجيال قيادية مختلفة أمثال الظواهرى، أو الزرقاوى، أو أبو حمزة المصرى وآخرين.. إنما يؤكد أن واشنطن تدرك أن أسطورة أسامة بن لادن يجب أن تبقى شاخصة فى الأذهان، ولا تغيب لحظة واحدة عن «عقل العالم» إن لم يكن فى شخص أسامة بن لادن فمن خلال شخوص رفاقه وتلاميذه ومريديه..

..أقول وأكرر (ما أقسم عليه) وهو أن تنظيم القاعدة الذى تعلن أمريكا الحرب عليه وتقوم بتجييش الجيوش ضده قد خدم إدارة واشنطن «ولا يزال» خدمة جليلة فهو صنيعها- لا جدال- وحجتها، ومخلب قط فى يدها، تخيف به هذا النظام، وهذه الدولة، وتلك الحكومة..

لكنها تبدو أمام العالم في صـــورة المحارب الذى لن يـهدأ حتي يتمكن من تجفيف منابعه، والحقيقة أنها تمده بكافة الوسائل العسكرية والمادية، وليبقى مجاهرا بعدائه لها، فتكسب ما تكسبه من دعم العالم وتعاطفه (أو خوفه لا فرق) معها.. وأكاد أقول أن هذا التنظيم (تنظيم القاعدة) ليس بهذه الدرجة من الدقة والإحكام والانتشـار على نحو ما تصوره المخابرات الأمريكية.. إنه أضعف وأكثر هشاشة مما نظن، لأن تضخيمه والتهويل من أمر خطورته إنما يخدم أمريكا وحدها..

ولذلك لن يموت هذا التنظيم ما دام يقوم بالوظيفة المنوطة به.

وقناعتى الراســخة هى أن رجال الأمن الأمريكى اخترقوا- فى براعة- هذا التنظيم وزرعوا من زرعوا من رجال وأجهزة، فى أعماق أعماقه، بل ووصل بعض رجالهم إلى مواقع قريبة من قادة التنظيم وشغلوا مواقع المستشارين لهم..

لذلك تصـــدر المواقف عن الظواهرى وأعوانه فى توقيتات، ومناسبات لا تخدم غير الإستراتيجية الأمريكية.. لهذا أقسم أخيرا أن تنظيم القاعدة أصبح تنظيما أمريكيا صميما وإن ارتدى قادته «الجلباب»، واعتمروا «بالعمامة» وتدلت من بين أيديهم«المسبحة».

حالة «التماهى مع الأمريكان».ما هى أسبابها؟!

تدهشـــنى كثيرا «حالة التماهى» التى تعيشـــها المنطقة العربية مع السياسات العالمية إلى حد بات يصعب فيه الفصل بين ما هو عربى وما هو غربى.

. فمثلا قبل ســـنوات صـــدر عن الكونجرس قانون يعرف بقانون محاسبة سوريا ضيّق الخناق كثيرا على هذا البلد العربى ووضع قيوداً صـــارمة على تحرك الســوريين داخل أمريكا كما جمد أموالا ولا يزال.. ووصل هذا القانون إلى حد اعتبار سوريا حشرة سوداء لابد من سحقها!!

فى البداية كان الموقف العربى رافضـــا لهذا القانون وأبدت بعض الدول العربية امتعاضها من تداعيات هذا الاستعداء الأمريكى ضد ســـوريا.. لكن رويدا، رويدا، وجدنا الموقف العربى «يتماهى» مع الموقف الأمريكى وكأن قانون محاسبة سوريا يمتد ليغطى المنطقة العربية..

..شـــيء آخر يتعلق بســـوريا وهو اتهام أمريكا لها بعرقلة الحل والاستحقاق الرئاسى فى لبنان..

لكن رويدا، رويدا وجدنا معظم الدول العربية تظهر ميلا للرؤية الأمريكية.. حتى بات الموقف العربى (صـــورة) أخرى من الموقف الأمريكى..

.. وإذا انتقلنا إلى فلســـطين المحتلة، وجدنا المشـــهد يتكرر بحذافيره.. فحماس اختار ها الشـــعب بانتخابات أشـــرف عليها برلمانيون وسياسيون غربيون وأوروبيون وصفق لها الجميع في المنطقة العربية لأن فوز حماس تم بإرادة شـــعبية. وبممارســـة ديمقراطية أشـــاد بها القاصـــى والدانى.. .. لكن رويدا، رويدا قلبت أمريكا وأوروبا ظهر المجن لحماس – وطالبت بالطلاق البائن..

وبعد مد وجزر تحقق ذلك، ووجدت حكومة إســـماعيل هنية نفسها خارج مقاعد السلطة.

واتسعت دوائر الاستعداء بين الفلسطينيين وبعضهم البعض وتقارب كثيرا الخطابان العربى والأمريكى إلى حد التماهى!

.. وفى دارفور لم يختلف الأمر كثيرا.. رفض العرب- فى البداية المطلب الأمريكي والأوروبى بشـــأن نشـــر قوات دولية.. ومع الإصـــرار أو بالأحرى العناد العربى، رضـــخ العرب- وأصبحوا- هم بدورهم- يطالبون بالوجود العسكرى الأممى وهو نفس مطلب القوى الكبرى..

الســـؤال الآن: إذا كـان الحـال يبـدأ بـالاعتراض ثم يتنهي بالرضـــوخ والتماهي.. ففيم إذن كل هذه الخطابات الســـياســـية (الرنانة والساخنة) والتى لا مردود لها فى التحليل النهائى..!

ثم هناك ســـؤال آخر: من يرســـم ســـياســـاتنا العربية هل هم العرب أنفســـهم ومن منطلق قنـاعـات وثوابـت لا تتزحزح، ومصـــلحة عربية كبرى تفرض نفســـها على الجميع- أم أمريكا وأوروبا اللذان قسّـــما العالم العربى بمقتضـــى (ســـايكس - بيكو جديد) ووزعا مناطق النفوذ، والســـلطة فيما بينهما..وما علينا سوى الانصياع والتنفيذ..

للإنصـــاف يجب أن نذكر أن هذه الممارســـات تملأ النفس بالقنوط، وتغلق أمامنا كل أبواب الأمل فى كلمة العربية ســـواء نواجه بها غطرســـة الغرب وهيمنته التى باتت قدراً أو هكذا تبدو عموماً لا مهرب منه..

.. وقديما تحدثت أوســاط أكاديمية غربية تتهم الحكومات العربية بأنها اكبر مســتفيد من اســتمرار حالة الاحتقان بســبب الأزمات التى تندلع فى المنطقة.. وذكرت أن الحكام العرب – على وجه التحديد – لا يريدون حلاً للقضــية الفلســطينية- وهم أكثر المرحبين بأزمة لبنان وبأزمة الســودان، وبأزمة العراق.. لأنهم يســتمدون من هذه الأزمات ســبب وجودهم، وبقائهم فى الســلطة وتذكر هذه الأوســاط – فى عرض اتهامها - أن لحكام العرب قد أدمنوا التصــريحات بشــأن حلول لا وجود لها ســواء بالنسـبة للقضـية الفلسـطينية أما بالنسـبة للأوضـاع المتأزمة فى لبنان.

.. والمؤســف أن (حالة التماهى) التي نتحدث عنها أصــبحت قاســما مشــتركا ليس فقط بين الموقف من جميع القضــايا والأزمات- ولكن أيضـا باتت عتبة أسـاسـية تعبرها- بالضـرورة- كل الدول العربية.. حتى أصــبحت الســياســات العربية تســير معصوبة العينين وراء السياسات الأمريكية والأوروبية.

..فمثلا اليوم خفت الحديث (أمريكياً) عن الدمقرطة وحرية التعبير، وإتاحة الفرصة لحركات اجتماعية وسياسية ودينية لكى تشارك سياسيا فى الحياة العامة فى المنطقة العربية.. وكلنا يذكر أن هـذا الأمر كـان مطلبـاً أمريكيـا تلوكـه ألســن الأمريكيين والمتأمركين ليل نهار..

..وظلت واشــنطن تجعله ســيفا مســلطا على رقاب الحكام العرب ترهبهم به.

..ثم اختفى هذا الخطاب الســياســى الأمريكى وكأنه كان (فزاعة) ألقت الرعب فى قلوب حكام المنطقة.. بعدها- مباشــرة- حدثت هذه الحالة من التماهى مع سياسات الغرب.

أريد أن أقول أن حالة انعدام الثقة التى يعيشـــها العرب. فهذا البلد يترصـــد الآخر، وذاك البلد يتوجس من الدول المجاورة- وبات الهم وكأنه عربى بامتياز ونسينا أن هذه الحالة من السيولة التى يعيشها عالمنا العربى لم تظهر فجأة وإنما أعد لها وأنضجها على نار هادئة أطراف دولية من واقع خريطة طريق رســمتها سلفا الدولة العبرية.. التي بات يدهشنا وتُفجعنا- فى آن واحد- أنها لم تعد تظهر على خريطة الصـــراع وكأنها أصـــبحت فجأة بردا وسلاما.. وتحولنا نحن (العرب) إلى أعداء ألداء لبعضنا البعض..

..إنها واحدة من تجليات الانتكاســـة العربية التى أصـــبحت ســـماء اتظللنا وبتنا نقرأ مفرداتها فى أحداث لبنان والعراق وفلسطين والسودان.. والبقية تأتى!

ستنتهى حقبة بوش «والذين معه» ويبقى عار المتأمركين!

عندما تحدث المفكر الأمريكى ناعوم تشوميسكى نحو عامين عن التشـــابه الكبير بين ما يحدث للجيش الأمريكى المحتل «فى العراق» وما حدث قبلا فى فيتنام كان الرئيس الســـابق جورج دبليو بوش أول الساخرين من ذلك، مؤكدا، فى غرور مقيت. أن الجيش الأمريكى لا يمكن قهره.

ثم توالت الأصـــوات ســـاخنة دامية وبدا الجنود الأمريكيون يتســـاقطون «كالذباب» برصـــاص المقاومة العراقية الباســـلة وخرجت تعليقات كبيرة ترجح ما قاله ناعوم تشوميسكي وتضيف إليه ســـقوط هيبة أمريكا فى أوحال العراق فتحدث روبرت مكنمارا وزير الدفاع فى إدارتى كيندى وجونسون معددا الأخطاء التى وقع فيها الأمريكان فى فيتنام والعراق. وقال: كان من المنتظر ألا يعترف الرئيس جورج دبليو بوش بهذا الخطأ باحتلال العراق لأن التعليمات الإستراتيجية الأولية تقول: حين

تســـقط فى حفرة يتعين عليك أن تتوقف فورا عن الحفر.. لكن الثابت عملا أن الرئيس الأمريكي والذين معه من عصـــابة المحافظين الجدد لم يكترثوا بهذه التعليمات.

شـــيئان هما اللذان جعلا الرئيس الأمريكى يصـــيغ الســـمع مؤخرا ويقف متأملا هذه التعليمات الاســتراتيجية، الشـــيء الأول هو الضـــربات الموجعة التى يســـددها رجال المقاومة فى ظهر وبطن جيش الاحتلال الأمريكى «سقط فى شهر أكتوبر ٧٠ قتيلا أمريكيا» والشيء الثانى أن الكاتب الأمريكى الأسير لدى عصابة المحافظين الجدد توماس فريد مان قد تحدث مؤخرا عن تشـــابه الوضع فى العراق مع مثيله فى فيتنام!

ما يهمنا في هذا التراجع من جانب الرئيس الأمريكى الذى صدق ووافق على ما كان قد أنكره ورفضه قبل عدة أشهر هو أن نراجع نحن كل المقولات التي غمرتنا بها الميديا الأمريكية بشأن العراق.. وليس من شك فى أن هذه المراجعة ستكون مفيدة، لأنها ستؤكد لنا«ما كنا نراه ونشاهده». وهو أن الدولة الأمريكية ليست أكثر من آلية لصناعة«أو فبركة» الأكاذيب والافتراءات.

أول أكذوبة أن نظام صدام حسين كان يمتلك أسلحة دمار شامل.. وهو ما لم يثبت ولن يثبت.. وقصارى الأمر أنها كانت ذريعة لتبرير الاحتلال وإسقاط النظام وإشعال العراق بنيران حرب أهلية لن تبقى ولن تذر!

ثانى أكذوبة أن النظام العراقى كان على صلة قوية بتنظيم القاعدة الإرهابى.. وأن علاقات وطيدة كانت تربط بين عدى وقصى نجلى الرئيس صدام حسين وأسامة بن لادن ورفاقه.

ثالث أكذوبة أن العراق سوف تتحول بعد أقل من شهرين إلي جنة للديمقراطية، أو شمس تشرق على باقى دول المنطقة (حرية وليبرالية وديمقراطية)!

رابع أكذوبة أن الشعب العراقى قابل قوات الجيش الأمريكى الغازية «بالورود والرياحين»..والصحيح أنه قابلها بالمتفجرات والبارود، لأن شعبا عريقا عمر حضارته أكثر من أربعة آلاف عام لا يمكن أن يقبل الظلم والطغيان، لا من أبنائه ولا من محتليه!!

خامس أكذوبة أن صدام حسين كان إبليسا مخفيا لشعبه ولجيرانه وبات بقاءه فى السلطة يمثل تهديدا للأمن القومى الأمريكي والعالمي.. وهى أكذوبة لا معنى لها. لأن ممارسات قوات الاحتلال الأمريكى أكثر شيطانية مما كان يفعله صدام حسين.

أما مسـألة تهديد الأمن القومى العالمى فهى غامضـة اللهم إذا فهمنا أن هذا الأمر المشـار إليه ليس أكثر من ضـمان تدفق النفط إلى الدول الصناعية الكبرى..

وهو معنى ضيق لا يمكن اعتماده «كمعنى عام» خصـوصـا إذا علمنا بأن صدام حسين لم يصل إلى موقعه الرئاسى إلا بدعم غربى« أمريكى. أوروبى» ولم يدخل فى حرب السنوات الثمانى ضـــد إيران إلا بدفع أمريكى- بل لم يجازف ويتجه إلى احتلال الكويت عام ١٩٩٠ إلا بضوء أخضر أمريكى!

..إذن بات ضـــروريا أن نتخذ من اعتراف الرئيس الأمريكي السابق بوش بتشابه الوضع بين فيتنام والعراق مناسبة لمراجعة الـذات وتحليـل جميع الأكـاذيـب والافتراءات والـدعـاوى التى روّجها المحافظون الجدد ليس فقط بشـــان العراق ولكن بشـــأن المنطقة ككل.

فواشـــنطن كانت ولا تزال تريد أن تجعل من العراق امتدادا جغرافيا واستراتيجيا لطموحاتها ومخططاتها العراقية إلى فرض نفوذها على المنطقة لضمان ما تسميه هى بالأمن النفطى، كذلك لضمان أمن إسرائيل.

وكان طبيعيا أن تبدأ تنفيذ هذه المخططات بأكاذيب روّجتها عبر أبواقها الدعائية« الفضـــائية والإذاعية والصـــحفية» التى أقامت لها مؤسسات إعلامية فى المنطقة العربية.. والأخطر أنها استخدمت فى هذا الترويج أقلاما وأصواتا عربية دفعت لها الثمن مقدما فى مقابل أن «تتأمرك» وتبيع العقل والقلب والضمير.

.. وبهذا اعترف دونالد رامسفيلد وزير الدفاع عندما قال: أنه أسس خلية للتفكير الاستراتيجى وظيفتها تجنيد صحفيين وكتاب، وأدباء وجامعيين ليكونوا أبواقا لأمريكا.

كل فى مجاله. ورواتب هؤلاء المتأمركين تصلهم بطرق ملتوية حتى لا ينكشف أمرهم.. فهى تدعو كبيرهم مثلا بدعوى إلقاء محاضرات فى جامعات ومراكز بحثية أمريكية لمدة أربعة أشهر فى العام«أو يزيد».

كما تنظم رحلات بحثية واستكشافية للصحفيين الشبان عبر منح دراسية تمولها أجهزة المخابرات الأمريكية، كما تدعم الآخرين بأموال وبرامج تدريب وتساعدهم فى إقامة مؤسسات للمجتمع المدنى تكون الستار الذى يعملون من ورائه لخدمة «سيدة النعم» أمريكا.

العجيب والغريب أن هذه الأشكال من التعاون الأمريكى المشبوه لم تعد خافية على أحد، والأفظع هو أن المتأمركين يمشون بيننا فى زهو وخيلاء وكأن الجوسسة وكتابة التقارير واختراق مجتمعنا المصرى والعربى لصالح الأمريكان، بات شرفا ويفاخر به المتأمركون ويتباهون.

أريد أن أقول أن اعتراف الرئيس الأمريكي بأنه يواجه مستنقعا فى العراق يشبه كثيرا المستنقع الذى غاصت فيه أمريكا في فيتنام.. هو إشارة استسلام وتوجس من نتيجة قد تكون ساحقة ماحقة خصوصا أننا على أعتاب الانتخابات النصفية فى الكونجرس.

.. وسوف تنتهى إن عاجلا أو آجلا هذه الحقبة فى تاريخ أمريكا والعالم لكن سيبقى أن بوش وعصابة المحافظين الجدد قد أضروا أمريكا ضررا بالغا وحفروا بغباء حفرة سوف تدفن فيها هيبة أمريكا العظمى.. وسوف تخرج منها المقاومة العراقية منتصرة كما انتصر شعب فيتنام.

شيء واحد سوف يبقى فى ذاكرتنا العربية هو أن حقبة بوش والذين معه، قد فضحت المتأمركين الذين يعيشون بين ظهرانينا.

الفصل الخامس : تطبيقات

الصحافة العربية المهاجرة شعارها: ادفع نكتب لك !!

في تقديري أن الصحافة المصرية عبر مسيرتها الطويلة والتي بدأت مع صدور صحيفة الوقائع المصرية في عام ١٨٢٨ (وهي أول صحيفة تصدر في الشرق العربي) لم تعرف أي صيغة متوازنة من أي نوع بين وظائف الصحافة الأربع (الإخبارية والتثقيفية والخدمية والترفيهية) ففي أحايين كثيرة اتسعت وظيفة التسلية والخدمات على حساب الوظيفة الإخبارية.. وحتى هذه الأخيرة- وحسب النظام السياسي السائد – قد تتعرض للطمس والتشويه ومن ثم تغيب شمس الحيدة.. وفي هذا الصدد أذكر أن تاريخ الصحافة الموضوعية وتغرب شمس الحيدة.. وفي هذا الصدد أذكر أن تاريخ الصحافة العربية يؤكد أن بداياتها- تحت الاحتلال العثماني- قد نشأت في جو يفتقد الحرية ويعاني القمع والمراقبة الشديدة، فالباب العالي قد وضع قاموسا من الكلمات الممنوع تداولها أو استعمالها في الكتب مثل: كلمة جمهورية، وثورة، وانفجار، واغتيال، ورئيس جمهورية، وتمرد، وعصيان، وقومية عربية، وعرب ... الخ. وكانت هذه القوانين الصارمة توقع الصحفيين في حرج شديد، حتى إنه وفي إحدى المرات، وعندما تم اغتيال رئيس جمهورية فرنسا (كارنو) لم تتمكن الصحافة العربية في ذلك الحين من ذكر الخبر كما حدث..

وبدلا من أن تكتب الخبر كما يلي :

- تم اغتيال رئيس جمهورية فرنسا.. أرغمتها لجنة المراقبة العثمانية على ذكر الخبر بالصيغة التالية: توفي الزعيم الفرنسي كارنو إثر حادث أليم. كما أن أحد القوانين الصحفية التي صدرت في تلك الفترة قد ورد في آخر بنوده أن يُضرب الصحفي المخالف بالفلقة!

الطريف أن تنفيذ هذا البند كان يتم في صـــورة تراجيدية محزنة ومضحكة في آن واحد. فالصحفي (أو الجورنالجي) الذي شاءت أقداره التعسة أن يستخدم في مقالته كلمة من الكلمات المحظورة كان يفاجأ بشخصين – من لجنة المراقبة - يطرقان باب منزله وما أن يفتح المسكين الباب لهما، حتى يجد نفسه مربوطا بالحبال بين يدى الأول، لينهال الثانى على قدميه ضربا بعصا بغليظة.!

هذا عن الصحافة العربية فى ظل الاحتلال العثمانى.. أما فى ظل الاحتلال الغربي فلم تكن الصحافة العربية أسعد حالا. فعلى الرغم من ديمقراطية نظم السياسة فى الغرب (طبعا)، وحرية الصحافة التى كانت تكفلها القوانين هناك، فإن الغرب كان يمارس مراقبة شديدة على الصحافة العربية.. والدليل على ذلك أن الإنجليز فى مصر عندما ضاقوا ذرعا بمجلة العروة الوثقى التى كان يصدرها جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده فى باريس عام ١٨٨٤ عملوا بشتى الوسائل على سد جميع النوافذ فى وجهها. ففى مصر، انعقد مجلس النظار، وبعد أن بحث في أمرها، أصدر قراره بأن تشتد نظارة الداخلية في منعها من دخول الأقطار المصرية وأمرت إدارة البريد بمراقبة ذلك.. وأن كل من توجد فى حوزته نسخة من هذه الجريدة يدفع غرامة تتراوح بين خمسة وخمسة وعشرين جنيها مصريا. كما حدثت مضايقات أخرى قامت بها بريطانيا عن طريق الحكومة الفرنسية، وتقضي بعدم منح العروة الوثقى التيسيرات البريدية التى تمنح للصحف الأخرى، وأصبح إرسالها بالبريد عبئا على مصدريها..

لو انتقلنا بعد ذلك إلى تأمل واقع الصحافة العربية بعد حصول الدول العربية على الاستقلال، فسوف يتبين لنا أنها وجدت نفسها معرضة لممارسات أقسي وأعنف مما كانت عليه تحت الاحتلالين العثماني والغربى. (هذا، إذا استثنينا بالطبع بعض الفترات القصيرة التى تمتعت فيها الصحافة العربية بشئ من الحرية). لذلك فالصحافة العربية اليوم تعيش أزمات كبيرة أهمها «أزمة المصداقية»..

فغياب الحرية جعلها صحافة أنظمة، كما حصرت مهمتها فى جانبين:

الأول: أن تكون البوق الدعائى للسلطة.

الثانى: التعتيم الإعلامى على أخطاء السلطة وعمل أى شئ لا يتماشى مع سياستها...

- ومن أبرز الأمثلة على ذلك أن صحف إحدى الدول العربية لم تورد ذكر اجتياح العراق للكويت إلا بعد أربعة أيام من وقوع الاجتياح فعلا. أى بعد أن علمت كل شعوب الأرض بتفاصيله وخباياه..! وقد تم نشر الخبر بعد أن وافقت رقابة الدولة المعنية طبعا! أما عن تحريف الأخبار فى مثل هذه الظروف فحدث ولا حرج!

- كل هذا أدى إلى نتيجة مهمة هى أن الصحافة فقدت وظائفها الأربع التى تحدثنا عنها.. وفقدت بالتالى مصداقيتها خصوصا بعد أن أصبحت لا تعمل إلا فى اتجاه واحد هو الاتجاه الهابط من أعلى (أى من السلطة إلى الشعب). ونسيت الشق الآخر من مهمتها وهو توصيل الرسالة الصاعدة من الشعب إلى السلطة. ثم إذا أضفنا إلى ذلك أزمة القارئ العربى وتفشى الأمية، وانتشار التليفزيون والقنوات الفضائية، والراديو، وانخفاض مستوى المعيشة، واعتماد الصحف فى تمويلها على الإعلانات.. لوجدنا أنفسنا أمام حقيقة جارحة تقول: إن الصحافة العربية اليوم تعيش مجموعة من الأزمات الطاحنة التى تجعل الحديث عن دور لها فى توجيه الرأى العام أمرا مثيرا للدعاية.. فليس من المنطقى أن ننتظر من صحيفة مخنوقة، ومأزومة، ومُقيدة بالأغلال أن تنادى بالحرية وتحرض على الانطلاق وتقوم بتوجيه الرأى العام الوجهة الصحفية.. وقديما قال الفيلسوف الألمانى نيتشه: لا تنتظر من العبد أن يربى حرا أو سيداً!

ورغم ذلك، فالإنصـاف يقضـى بأن نلفت الانتباه إلى أن هذا الغمام الكثيف الذى يغلف أجواء الصـحافة العربية لم يمنع من ظهور ومضـات قوية وسـاطعة فى فترات متباعدة من تاريخ الصحافة داخل عدد من الدول العربية.. من هذه الومضات المناخ الصـحى الذى تتنفسـه الصـحافة المصـرية اليوم.. وخصـوصـاً صحيفة الأهرام.

وقد حالف الحظ صـحيفة «لوموند» الفرنسـية عندما وصـفت رئيس تحرير الأهرام بأنه كالمايسـترو الذى يسـوس كل الآراء والاتجاهات، فاسـحا لها المجال جميعا دون حظر أو تعتيم.. حتى أصبحت الأهرام تعيش أزهى عصورها وتستقطب كل التيارات.. لتصبح بحق جريدة الشعب وكل الشعب بمختلف طوائفه وفئاته.

صحافة المبادئ: أبو نظارة زرقاء والعروة الوثقى:

على أية حال يمكن القول أن الصــــحافة العربية المهاجرة تندرج بشــكل عام- تحت عنوانين كبيرين، الأول هو صـــحافة المبادئ والعنوان الآخر هو صحافة الموت شبعا.. وشتان بين العنوانين..

فيرى مؤرخو الفكر العربى المعاصر أن صحافة المبادئ تنطبق على عدة جرائد منها جريدة (بريجس-باريس) التى صدرت فى عام ١٨٥٨ وجريدة (عطارد) التى صدرت فى عام ١٨٥٩، وجريدة (المشــترى) التى صـــدرت عام ١٨٦٧. ثم صـحيفة (الصـدى) التى أصـدرها جبرائيل عبد الله امام فى عام ١٨٧٧، وكانت لسـان حال السـياسـة الفرنسـية والناطق الرسـمى باسمها فى الأقطار العربية (خصوصا فى مصر وسوريا).

ويدخل فى إطار «صحافة المبادئ» أيضا صحف ثلاث هى «الاتحاد، والأنباء، والرجاء» التى صـدرت جميعا فى عام واحد (عام ١٨٨٠) تحت إشـــراف ومســـئولية إبراهيم المويلحى، ثم صحيفة البصـير التى صـدر العدد الأول منها فى باريس فى ٢١ إبريل ١٨٨١، وكان رئيس تحريرها المسؤول خليل غانم، ويقال إن جمال الدين الأفغانى كان قد نشر عدة مقالات متوالية فيها قبل إنشـــاء جريدة «العروة الوثقى» ويذكر تاريخ الصـــحافة العربية المهاجرة فى القرن قبل الماضــــى أن هناك صـــحفا ثلاثا أخرى تعتبر من أهم المطبوعات التى صـــدرت فى هذه الفترة وهى صحيفة «أبو نظارة زرقاء» وصحيفة «مصر القاهرة» وصحيفة «العروة الوثقى»..

الصحيفة الأولى – صحيفة أبو نظارة زرقاء –صدرت فى باريس فى السابع من أغسطس عام ١٨٧٨وتميزت بأسلوبها الساخر واستخدامها الكاريكاتور فى التعبير الصحفى، وكان رئيس تحريرها يعقوب صنوع، وهو أول عربى يحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة وكان مولعا بشؤون الفلسفة والمتفلسفين وأمور الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة).

الصحيفة الثانية- صحيفة «مصر القاهرة»- صدر العدد الأول منها فى باريس في ٢٤ديسمبر ١٨٧٩ وكان يرأس تحريرها أديب إسحاق، الذى شاءت أقداره أن يلتقى فى القاهرة جمال الدين الأفغانى، ويتبادل معه الرأى والمشورة حول أوضاع العرب والمسلمين، وقد شجعه الأفغانى كثيرا على احتراف الصحافة وتكريس الجهود لها..

ويذكر أن أديب إسحاق هذا، كان قد أصدر صحيفتين فى مصر، الأولى اسمها «مصر» والثانية اسمها «التجارة» وكان عمره وقتئذ ٢١ عاما واستطاع بهما أن يرسخ دعائم النهضة القومية والأدبية فى مصر.

وقد تبنت صحيفة مصر – القاهرة أفكار الثورة الفرنسية وحرصت على نقل الحياة الأدبية الفرنسية إلى الواقع العربى. ولعل هذا ما تعكسه العبارة التى أبرزتها الصحيفة فى عددها الأول وكانت كالتالى: (جريدة «مصر – القاهرة».. تطبع فى باريس تحت سماء الحرية لنشر ما يعود بالنفع على البلاد العربية).

- أما الجريدة الثالثة والتى تعنينا فى هذا المجال فهى **جريدة «العروة الوثقى»** التى صدر العدد الأول منها فى ١٣ أبريل عام ١٨٨٤ وكان يشرف على تحريرها جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده. وعلى الصفحة الأولى من عددها الأول قدمت الجريدة نفسها إلى القراء كالتالى: العروة الوثقى، (لا انفصام لها). جريدة سياسية أدبية تصدر يوم الخميس. مدير السياسة: جمال الدين الأفغاني. المحرر الأول: الشيخ محمد عبده. ترسل الجريدة إلى الجهات الشرقية، أجرة البريد خمسة فرنكات فى السنة لمن تسمح بها نفسه. من شاء أن يبعث إلينا بتحارير أو رسائل فى أى موضوع، رغبة فى نشره فى الجريدة، أو التنبيه على أمر مهم، فليرسلها إلى إدارة الجريدة بهذا العنوان: ٦شارع مارتيل، 6 martel rue .

● **السؤال الآن**: ما هى أسباب هجرة كل هذه الجرائد إلى الخارج؟

المحقق أن اختفاء الحريات، وفقدان الديمقراطية فى الأقطار العربية كانا السبب المباشر لهذه الهجرة الصحفية التى وصفناها «بالأولى» فبعد أن ضاق الخناق على جمال الدين الأفغانى (الذى كان جوالا فى هذه الفترة بين مصر والدولة العثمانية، وإيران بسبب الظروف السياسية آنذاك) قصد باريس، وتبلورت فى ذهنه فكرة إصدار صحيفة سياسية يكون هدفها شن الحملات على الاستعمار وإثارة الشعوب المغلوبة عليه. وبعث الأفغانى إلى تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده الذى كان بسبب موقفه من الثورة العرابية قد تم نفيه إلى بيروت. وبوصوله إلى باريس بدأت الصحيفة بالفعل فى الصدور اعتمادا على الرجلين، الأول هو الأفغانى الذى كان حسب رواية شكيب أرسلان صاحب أفكارها، والثانى الشيخ محمد عبده الذى كان (كاتبها الأول، وصاحب العبارة فيها).

ويتلخص برنـامج العروة الوثقى فى مبدأ عـام ينطوى على مبادئ كثيرة هو حرب الاسـتعمار بكل وسـيلة مسـتطاعة، ومن تلك الوســـائل تحريض المحكومين على حكومـاتهم الأجنبيـة، وإزالة أسـباب الخلاف بين الدول الإسـلامية لسـد الثغرات التى يتسلل منها المستعمر بين تلك الدول لتأليب بعضـها على بعض، وتسخيرها جميعا لخدمته .. ومنها أيضا ضم الصفوف الوطنية، حيث يعيش المسلمون مع غير المسلمين فى وئام وسلام.

اللافـت للنظر أنـه على الرغم من أن صـــحيفـة «العروة الوثقى» لم يصـــدر منها سـوى ثمانية عشـــرة عددا ثم احتجبت، فإنها -كما يقول أحد الباحثين- كانت صـــاحبة الصـــدى المدوى الذى اخترق حاجز الصـوت فى سـماء التاريخ العربى الحديث، والذى حمل بين دلالاته مغزى الأهمية البالغة لدور المطبوعة الصحفية فى النهضة العربية.

والحق أن الإنجليز فى مصـر قد احتاطوا للأمر عندما علموا بعزم جمال الدين الأفغانى على إصـدار الجريدة، وحسـبوا لذلك ألف حسـاب لما يعلمونه من أثر «السـيد» الفعال فى السـياسـة الشـرقية خصـوصـا المصـرية، فجهر بعض سـاسـتهم بتحريض الحكومة عليها حتى قبل صدورها!

وقد بين السـيد (أقصـد جمال الدين الأفغانى) ذلك فى جريدة العروة الوثقى، إذ كتب مقالا طويلا فى العدد الخامس الذى صدر فى ١٠ أبريل عام ١٨٨٤ قال فى ختامه:

«... فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لن نعجز عن بث أفكارنا فى البلاد الشـرقية سـواء كان بهذه الجريدة أو بوسـيلة أخرى، إذا دعا الحال فإن أنصار الحق كثيرون».

ويروى أنه بعد أن ضاق الإنجليز ذرعا بالعروة الوثقى عملوا بشتى الوسائل على سد جميع النوافذ فى وجهها. وفى مصر عقد مجلس النظار، وبعد أن بحث فى أمرها. أصدر قراره بأن تشتد نظارة الداخلية في منعها من دخول الأقطار المصرية، وأمرت إدارة البريد بمراقبة ذلك». وأن كل من توجد عنده نسخة من هذه الجريدة، يدفع غرامة يتراوح قدرها بين ٥ جنيهات، و ٢٥ جنيها. بل حدثت مضايقات أخرى شنتها بريطانيا عن طريق الحكومة الفرنسية، وتقضى بعدم منح العروة الوثقى التيسيرات البريدية التى تمنح للصحف الأخرى، وأصبح إرسالها بالبريد عبئا على مصدريها..

ولاشك أن العروة الوثقي كجريدة، تثير قضايا عديدة فى الفكر العربى المعاصر سواء على صعيد رسالتها مثل : هل هى جريدة سياسية ام ثقافية؟ أو على صعيد محاربتها للاستعمار الإنجليزى ومهادنتها –إلى حد ما- للاستعمار الفرنسى.. أو على صعيد اهتمامها بمصر من دون غيرها من الأقطار العربية.

ولأن المقام لا يسمح بمناقشة كل هذه القضايا مجتمعة باعتبار أن هدفنا هو إبراز المقارنة بين الهجرتين «الأولى والثانية» فى تاريخ صحافتنا العربية فى الخارج، أود أن أشير إلى أنه من الخطأ الزعم أن مجلة العروة الوثقى قد عمدت – كما تقول دراسة علمية في جامعة السوربون – إلى تكريس مفهوم الإقليمية عندما ركزت على قضية تحرير مصر من الإنجليز، ومخاطبة الجمهور المصرى من دون الجمهور العربى. فالحق أن العروة الوثقى وإن اهتمت بمصر، فإن هذا الاهتمام يأتى فى إطار اهتمام أكبر وهو الاهتمام بالمسألة الشرقية برمتها، وقد غدت مسألة مصر «حجر الأساس» فيها.. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن الأفغاني نفسه قد أكد أن اهتمامه بمصر لا يعني أنه يهمل بقية البلدان الأخرى، فها هو يقول: «لا يفوتن أهل الشرق أن كل مدينة وكل مقاطعة إسلامية شرقية هى بمنزلة مصر. وإن لم تسقط تحت أهل المطامع اليوم، فالشراك لها منصوبة، والسقوط –والعياذ بالله- قريب إلا إذا عمل أولو العزم، ولمت الأمم الشرقية شعثها..» ثم هناك نقطة أخرى تتمثل فى أن صحيفة العروة الوثقى كان لابد أن تتجه إلى جمهور يستطيع أن يفهم دعوتها الإصلاحية خيرا منهم، ولم تكن لتجد هذه الجمهور سوى فى شريحة كبيرة من أبناء الشعب المصرى الذى كان يعيش فى ذلك الوقت فى مناخ اجتماعى وتضامن مزدهر، بفضل البعثات العلمية التى أمر بها محمد على، وكذلك بفضل الصلات الوطيدة التى عرفتها مصر بين الشرق والغرب.

- أيا كان الأمر، فقد استطاعت العروة الوثقى من خلال أعدادها الثمانية عشر أن تسهم بحق فى تغيير الأوضاع السياسية والثقافية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت إلى حد يجعلنا ندهش عندما نجد صحفا كثيرة تصدر فى زماننا دون أن تحرك ساكنا فى واقعنا العربى!!.. والسبب – بحسب مؤرخى تاريخ الصحافة المهاجرة هو أن هذه الصحف فى معظمها قد وضعت شعارا لها هو : ادفع نكتب لك.. ولم يغب عن بالها أنها لابد زائلة .. أو ميتة، فقررت أن يكون (الموت بعد شبع، وليس بعد جوع).

- ويسألونك عن صحافة الموت شبعا!

ها نحن نجد أنفسنا وجها لوجه أمام ما عُرف بالهجرة الثانية للصحافة العربية فى الخارج، والتى بدأت فى النصف الثاني من القرن العشرين. فقد شهدت باريس فى السنوات العشرين الأخيرة من القرن الماضى..على سبيل المثال صدور مجموعة كبيرة من المطبوعات الصحفية بين جرائد يومية، ومجلات أسبوعية أو شهرية إلى جانب عدد من الدوريات.. وكلها نشأت بالدرجة الأولى كنتيجة مباشرة للحرب الأهلية اللبنانية.

وللإنصــــاف يجب أن نذكر أن البعض كان يحلم بإمكانية إصـــدار صـــحافة عربية حرة فى أوربا، بعيدة عن الضـــغوط والأحقاد السـياسـية والإرهاب العسـكرى.. إلا أن الحلم قد تبخر على أرض الواقع عندما تبين أنه من المستحيل إصدار صحافة ذات طابع قومي، بمعنى أن القطرية أو الإقليمية ســتســـمم بالضــــرورة هذه المطبوعات، وهو ما قد حدث بالفعل بالنســـبة لغالبية الصحف العربية الصادرة فى الخارج..

بعبارة أخرى، لقد تحولت صحافة المهجر إلى صحافة إقليمية تُحرر فى عواصم أوربية وتُشحن إلى العواصم العربية، الأمر الذى حرمها كل «امتيازات الحرية» التى تتمثل فى الرأى المستقل، والنقد الهادف النزيه. كما يجب ألا ننسى أن «صحافة الهجرة الثانية» هي صحافة بلا قضية بالمقارنة بصحافة الرواد كالعروة الوثقى مثلا.. ولذلك كان طبيعيا أن تجد نفســـها أمام خيارات ثلاثة:

إما أن ترضى جميع الأنظمة – فتصبح لا لون لها ولا رائحة. وإما أن تصـــبح أداة إعلامية فى يد الأنظمة. وإما أن تختار الخيار الثالث وهو ممارســـة حرية نســـبية محتملة والحفاظ على أكبر قدر ممكن من الأصـــول المهنية. وفى هذه الحالة الأخيرة، يكون من الصـــعب عليها دخول أى بلد عربى، الأمر الذى يؤدى إلى موتها جوعا، (بحرمانها من سوق التوزيع).

والنتيجة الحتمية لذلك أن تقرر صحافة الهجرة الثانية أن تموت شبعا لا جوعا، وهو ما حدث بالفعل!

ولتفسير هذه الرؤية يمكن أن نرصد مجموعة من المؤشرات أو العلامات التى يتميز بها هذا النوع من صحافة الموت شبعا:

أولا: أصبحت الغاية الأساسية لأى صحيفة، هى الكسب المادى المباشـــر ليس من المبيعات وإنما من الدعم، فغابت المبادئ أمام الأنظمة العربية التى كانت تغدق المال على أصحاب هذه الصحف.

ثانيا: يرى البعض أن هذه الصحف قد وقعت فى فخ نصبته لها الحكومات العربية عندما أعطتها المال، فاعتادت على نمط استهلاكى كبير سواء فى إدارتها أو فى طبعها، وعندما توقف الدعم انكشفت هذه الصحف وأعلن معظمها الإفلاس.

ثالثا: الصحف المهاجرة حاولت ابتزاز وتملق القارئ العربى – وخير مثال على ذلك صدور (فى باريس) جملة من المجلات النسائية الفاخرة شكلا وطباعة (مثل مجلة شذى، وجمالك، وزينة..) – كانت تتكلف الكثير، بينما كان هدفها هزيلا، وهو ترويج وبيع الكماليات، والإكسسوارات للسيدات – ولم تحاول إحداها أن تطرح قضية مصالحة المرأة العربية بين تراثها وحاضرها. وعندما حاولت –بهدف تبريرى- أن تنقل الحداثة، نقلتها بمعناها الاستهلاكى! وتلك هى الطامة الكبرى!

رابعا: من أهم عوامل فشل الصحافة المهاجرة أن حداً أدنى من التعاون بين هذه الصحف فى باريس لم يتحقق، ولم ترتبط إحداها بالأخرى سوى بالشتائم والسباب، فمعظم اجتماعات التحرير كانت كما يقول بعض الصحفيين العرب العاملين فيها تتركز فى شن الحملات وتوجيه الاتهامات للصحف الأخرى.

ولكى نقترب أكثر من هذه الصورة البانورامية التى أجملناها للصحافة العربية المهاجرة - أرى أن النظرة التقويمية الصحيحة «لصحف الهجرة الثانية» يجب أن تنطلق من زوايا ثلاث هى: النوع الصحفى الذى تمثله. وإدارات الصحف ومؤسساتها. والمواد التحريرية التى تنشرها.

- **بالنسبة للزاوية الأولى:** اعتقد أن هذه الظاهرة التى أطلقت على نفسها صحافة Pan arabe – بان آراب- هى ظاهرة اصطناعية لأنها لم تكن فى يوم من الأيام متجهة إلى كل الدول العربية، والسبب هو أن الهم الوحدوى الواحد الذى كان يشغل الناس جميعا لم يعد موجودا اليوم على الأقل بالصورة التى كان عليها فى الستينات.

ثانيا: أصـــحاب هذه الصـــحف هم لبنانيون ولذلك كانت صـــحافتهم لبنانيـة صـــميمـة من حيث طريقـة المعـالجـة، أو الموضـوعات- بمعنى أنها كانت غارقة فى لبنانيتها على حسـاب قضايا أخرى تعيشها بقية الدول العربية.

ثالثا: أن اهتمامات هذه الصـحف اقتصـرت على الدول التى تدفع، والأنظمة السـياسـية التى تدعم، ومن ثم أهملت جمهور القراء.

رابعا: ظهرت فى الدول العربية –بعد ذلك- صحف وشركات إعلان منافســة، فكان أن اســتغنت هذه الدول عن الصـــحف المهاجرة وتوقف دعمها لها.

● **بالنسـبة للزاوية الثانية**- وهي المؤسـسـات والإدارات.. فلقد كانت إدارات هذه الصـــحف فاشـــلة تماما إذ لم تعرف أن تخطط لمســتقبلها، وأنفقت أموالها على أصـــحابها، بينما لم تحصل المؤسسات إلا على القليل جدا من الإعانات والدعم.

ثانيا: ظن أصـحاب هذه الصـحف –خطأ- أن الدعم المادى سـوف يسـتمر لعشـرين عاما قادمة، فتضـاعف إنفاقهم، الأمر الذى عجل بالنهاية.

● **بالنســبة للزاوية الثالثة – وهى التحرير الصـــحفى..** إذ يلاحظ أن كل مجلة لم تهتم إلا بالنظام السـياسـى الذى يدعمها فأصـــبحت موادها دعائية، وفقدت بذلك قراءها بعد أن فقدت مصداقيتها.

ثانيا: اعتمدت الصـــحف على الإعلانات فى فترة طويلة، فأهملت المادة التحريرية.

ثالثا: اعتمدت فى موادها التحريرية على الطلبة، «والهواة» وأهملت الكوادر والمتخصـــصـــين الجادين فانخفض مســـتواها الصحفى.

رابعا: استفـــادت الصحافة المهاجرة من وجودها فى باريس خصوصا فى ميدان الطباعة ووفرة المعلومات، إلا أنها خسرت فى ميادين أخرى، فعلى المستوى الاقتصادى مثلا، يرى البعض أن هذه الصـــحف قد توســـعت فى موظفيها وإدارييها، فزادت الرواتب والضرائب والتأمينات وأصبح هذا الأمر كحبل المشنقة بعد ذلك.

خامسا: شهدت الصحافة العربية أسوأ فترة من حيث انحطاط مستوى الكتابة باللغة الفصحى من أثر الترجمات الهزيلة المنقولة عن الصحف الفرنسية.

سـادسـا وأخيراً: الصحافة المهاجرة هى فى الأصل ظاهرة غير طبيعية انتهت أو لعلها لا تزال فى طور الاحتضـــار وقد لا تقوم لها قائمة بعد فترة طالت أو قصرت سيما بعد أن حلت محلها –وبشكل جدى- الصحافة المحلية- حيث يرى البعض أن العصر المقبل هو عصر الصحافة المحلية.

** أخيراً، وفى نهاية هذه الدراســـة التى اعتمدنا فيها على رصـد ظاهرة صـحف الهجرة الثانية من مختلف جوانبها، يمكن أن نقرر باطمئنان هذه النتيجة وهى :

إنه من الخطأ المقارنة بين هجرة الصـــحافة العربية الأولى، وبين هجرتها الثانية فالدوافع والنتائج فى كلتا الهجرتين على طرفى نقيض –وربما همزة الوصـــل الوحيدة التى قد تبرر عقد مثل هذه المقارنة ولو على الصـــعيد النظرى الأكاديمى، هى غياب الحرية وفقدان الديمقراطية فى غالبية الأقطار العربية.

- لكن فى ذات الوقت، يجب أن نؤكد حقيقتين:

الأولى: هى فشل صحف «الهجرة الثانية» فى معالجة قضايا العرب والمغتربين، وتجاهلها طرح مشكلاتهم، واكتفاؤها بالمعالجات التى تعتمد على الخبر الجاذب والكاذب أيضا.

الثانية: كان من المنتظر أن تقوم هذه المطبوعات الصحفية بدور مهم فى دفع الحوار العربى الأوربى إلى الأمام، والتقريب بين وجهات النظر، لكن المحقق، أن شيئاً جادا، خارج إطار التغطية الصحفية السريعة، لم يحدث!

ولذلك لا أعتقد أنى سأكون مغاليا إذا قلت إن تجربة العروة الوثقى ستبقى شامخة فى دوافعها، ونتائجها، بينما تتضاءل بل تتقزم معظم التجارب الصحفية الأخرى، باعتبار أن الأولى كانت مبادئها التحرر والديمقراطية أما الثانية فلا يحكمها سوى مبدأ واحد وهو: ادفع نكتب لك!.

اللوبى اليهودى والصحافة العالمية

فى كتابه «اليهود والعالم والمال»، يؤكد جاك أتالي أبرز مستشارى الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران، أن تجربة اليهود فى الشتات لقنتهم درسا يتوارثونه جيلا بعد جيل، مفاده أن إحكام السيطرة على العالم يتأتى من جانبين، الأول هو امتلاك المال والثانى هو امتلاك الآلة الإعلامية، ويقول جاك أتالى وهو مفكر وكاتب يهودى مرموق- إن قادة أوربا فى القرن التاسع عشر كانوا أشبه «بالماريونيت»- العرائس المتحركة- فى أيدى اليهود لأن طموحات معظمهم (السياسية والتوسعية) لم تتحقق إلا بأموال اليهود.. فحروب بسمارك مولها عدد من رجال الأعمال اليهود، ومشروع السكك الحديدية الضخم فى أمريكا قام به اليهود، وحصة الحكومة البريطانية فى شركة قناة السويس دفعها –بالكامل- أغنياء اليهود.

ومع بروز الإعلام مسموعا ومقروءا ومرئيا كقوة حاكمة، اتجه اليهود من فورهم لإحكام القبضة على أجهزة الإعلام فى كل دول العالم حتى لا تكاد تخلو مؤسسة إعلامية من عنصر يهودى، والسبب هو رغبتهم فى «التسيّد» على العالم من جانب، وتنقية كل ما يقال أو يذاع أو ينشر عن اليهود من جانب آخر.

ولأن اليهود يؤمنون- كما يقول جورج أورويل- بأن «الروايات عندما تردد نفس الشيء بشكل متواتر، فإن الكذب يمر في التاريخ ويصبح حقيقة»، فلقد دأبوا على تطبيق معادلة مزدوجة، طرفها الأول تشويه الحقائق، وتزوير الواقع، وترويج الرؤى اليهودية على أنها الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه.

لذلك سعوا إلى الصعود فوق صهوة الإعلام الغربى، وسيطروا فى دولة مثل فرنسا مثلا على أكثر من ٨٥٪ من وسائل الإعلام (يملكون أربع محطات إذاعية رئيسية، وعشرات المحطات المحلية، وأربع مجلات أسبوعية ونصف شهرية، وقناتين تليفزيونيتين، وعشرات المواقع على الإنترنت).

أمـا فى أمريكـا فلقـد اخترق رأس المـال اليهودى جميع المؤسسـات وبات صـاحب «الكلمة الأولى» فى كل ما يصـور إعلاميا فى بلاد العم سام.

* من يجرؤ على الكلام

أما الطرف الثانى الذى لا يقل خطورة عن الطرف الأول فهو إسكات أى صوت يختلف مع الصوت اليهودى، ومحاصـرة أى فكر يناقض فكرهم.

ولقد أثبتت الشـواهد أن أحداً لا يجرؤ على تفنيد مزاعمهم أو كشف الحقائق التى قاموا بإخفائها وتزييفها لأنهم أحكموا قبضتهم على العقل الغربى بحيث بأت مرهونا بإشاراتهم.

والدليل الصارخ على ذلك أنهم أجبروا وزير التعليم الفرنسي على سـحب درجة الدكتوراه من الباحث هنرى روك (فى جامعة نانت) لأنه تجرأ وناقش فى أطروحته وثائق النازية، ونفى وجود أفران الغاز، مؤكدا أنها محض أكذوبة يهودية!.

وعندما أصـر باحث آخر يدعوا فرنسـوا دوبار على شـأن الهولوكوست، لقى حتفه فى انفجار وقع فى سيارته المفخخة عام ١٩٧٨.

أما المؤرخ روبير فوريسـون الذى أكد أن «الإبادة الجماعية لليهود» هى مجرد ادعاء كاذب لا أسـاس له، فلقد كان جزاؤه الطرد من الجامعة، وانهال عليه ثلاثة من رجالهم بالضـرب والركل في إحدى حدائق مدينة فيشـى، وعاش حياته منبوذا من الجميع بتأثير ما نشـره الإعلام اليهودى فى الغرب عن أبحاثه وأفكاره.

الخطير في الأمر أن النفوذ اليهودى المبني على امتلاكهم للمال، وسيطرتهم على الإعلام تغلغل فى أوساط رجال السياسة وصناع القرار بالترهيب تارة، والترغيب تارة أخرى، وكان من ثمراته صدور جملة من القرارات التى تخدم «الهوى اليهودى» بغض النظر عن عما يمثله ذلك من ضرب مباشر للفكر الليبرالى واعتداء على الديمقراطية.

ففي فرنسا صدر تشريع عام باسم «قانون جايسو» يحكم على كل من يفرض أو يناقش أو يشكك فى مسألة استئصال وإبادة اليهود، بالسجن سنة وبغرامة قدرها ٣٠٠ ألف فرنك.

وتم إقرار قانون مماثل في النمسا عام ١٩٩٢ يتضمن السجن لمدة قد تصل إلى ستة أعوام لمن ينفى وجود الهولوكوست، وفى سويسرا وافق البرلمان السويسرى على معاقبة كل ناقد للهولوكوست بالسجن والغرامة.

ولاشك فى أن «تهديدا» كهذا يسلط على رقاب كل من يحاول أن يكشف الجرائم التى ارتكبتها إسرائيل فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، والمذابح التى اقترفتها في حق المئات من سكان جنين، ونابلس، وبيت لحم، وطولكرم، وقليقلية، والمؤسف أن الإعلام الغربي- الواقع تحت النفوذ اليهودى- يشارك فى مخطط تشويه الحقائق، وإظهار الجاني بريئا، وداعية للسلام، أما الضحايا فهم الأشرار الحقيقيون الذين نالوا ما يستحقون.. إنها لعبة المال والإعلام التى أجادها، وبرع فيها اليهود داخل الدولة العبرية وخارجها.

اللوبى اليهودى من كندا إلى أوروبا:

.. تزول الدهشة، وأمارت الاستغراب التى ترتسم على وجوهنا إزاء بعض الأحداث (أو التصريحات) التى تتعلق بقضايا العربية إذا ما حاولنا أن نبحث عن أصابع اللوبى اليهودى ومخططاته فهو لا يتابع فقط الأحداث ساعة بساعة، ودقيقة بدقيقة، ولكنه أيضا يصنعها بالطريقة التى تناسبه وتخدم المصالح العليا لدولته الكبرى (إسرائيل)..

ويكفى أن نتأمل ثلاثة مواقف أسواقها على سبيل المثال لا الحصر، زاعما أنها واحدة من ثمار العمل الدءوب والمتواصل لعناصر اللوبى اليهودى التى تتغلغل بل تسرى فى السياسات والمصالح من حولنا سريان الماء فى العود إلى حد أننا نعجز فى أحايين كثيرة عن التفريق بين ما يقوله مسئول بلد ما وبين ما يقوله المتحدث باسم الجالية اليهودية فى هذا البلد أو ذاك بمعنى أن المواقف «أو التصريحات» تكاد تكون متطابقة.. ولم لا ما دام الهدف هو إرضاء (وكسب وُد) يهود العالم وإسرائيل معا.

الموقف الأول بطله هو جان كريتيان رئيس وزراء كندا السابق الذى لم يقبل أثناء إحدى زياراته لمنطقة الشرق الأوسط- دعوة فيصل الحسينى فى القدس الشرقية- بينما أسرف فى مجاملة قادة إسرائيل، فزار الرئيس الإسرائيلى عزرا وايزمان، ورئيس الوزراء وقتئذ إيهود باراك ووقف فى خشوع أمام قبر إسحاق رابين برفقة أرملته، وتجول (معتمرا القلنسوة اليهودية السوداء) فى أنحاء مختلف «الهولوكوست».. ولم يرى غضاضة من أن يطلق جملة من التصريحات التى زلزلت الأرض تحت أقدام البعض من هول المفاجأة ووقع التأثير.. ولكى يرسم ابتسامة عريضة على أشداق مضيفيه من قادة وجنرالات الدولة العبرية أعلن أن من حق إسرائيل أن تحتفظ ببحيرة طبرية وبمياه الجليل

ورأى أن شـروط سـوريا لإنهاء حالة الحرب التي تزيد على ٥٠ عاماً مع إسـرائيل والتى تنص على اسـتعادة المياه العذبة الوحيدة لدى إسـرائيل هى فى الواقع شـروط غالية الثمن لتحقيق السلام»!

ولاشك أن هذا التصريح الذى أثار المعارضة الكندية إلى حد أنها طالبت جان كريتيان بقطع زيارته للمنطقة والعودة فورا إلي أوتاوا، لا يخدم سياسـة كندا فى الشرق الأوسط.. تلك السياسة التى تقوم على «الحياد» ورفض العداوات، واسـتخدام القوة المسـلحة فى حل الخلافات.. لكن الرجل (جان كريتيان) لم يأبه لكل ذلك، لأن إرضـاء اللوبى اليهودى (القوى والمؤثر جدا فى كندا) كان هو هدفه الأول سيما وأنه- على المستوى الشخصي- كان يشعر بحاجة إلى مساندته- إعلاميا واقتصاديا وسياسيا- فى معركتيّه سـواء داخل حزب الأحرار ، أو فى الانتخابات والتى تجرى قريباً..

حزب الله فى لبنان.. إرهابيا!

الموقف الثانى يتذكره الجميع حتما لأنه أثار ضجة فى حينه- كما أسلفنا في موقع من الكتاب- ودفع الكثيرين للتشكيك فى موقف فرنسا التقليدى فى المنطقة والذى يتأسس على «التوازن بين الاعتراف الإسرائيلي بحق العيش فى حدود آمنة ولفلسطين بحق تقرير المصير وإقامة دولة».

وكان بطل هذا الموقف أيضا رئيس الحكومة السابق ليونيل جوسبان الذى أطلق تصريحا مدويا وصف فيه عمليات المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلى بأنها «إرهابية» والمدهش فى الأمر أن ليونيل جوسبان أصر على موقفه، ونفى أن يكون ما قاله «زلة لسان» مشيرا إلي أنه لم يستخدم فى يوم ما عبارة «المقاومة اللبنانية» فى حديثه على حزب الله! صحيح لقد هاجت دوائر يمين الوسط في فرنسا على جوسبان واستدعاه الرئيس (الديجولى) جاك شيراك فور عودته ولقنه درسا في الدبلوماسية، وحرص قصر الإليزيه علي تأكيد ثوابت السياسة الفرنسية فى المنطقة عبر عدة قنوات إنقاذا لصورة فرنسا فى أذهان الأصدقاء العرب، لكن الثابت أن أصابع اللوبى اليهودى فى فرنسا لم تكن بعيدة عن مسرح الأحداث. فلقد جرى لقاء نظمته زوجة جوسبان (اليهودية) بين زوجها، وأعضاء المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية فى فرنسا المعروف باسم (كريف)، قبل زيارة جوسبان للمنطقة بنحو شهرين، تحدث فيه جوسبان عن رغبته فى تعميق وتوثيق علاقة حكومته- هكذا قال- بإسرائيل- مؤكدا أن هذا الأمر هو «هدف فى حد ذاته» ثم أشار لأول مرة إلي ما سماه (دبلوماسية الفصل) بين علاقة حكومته بإسرائيل من ناحية، وبأية ذبذبات يمكن أن تحدث فى عملية السلام من ناحية أخرى، بمعنى أن العلاقات مع إسرائيل يجب أن تتطور، وتتنامى بصرف النظر عما يحدث على مسارات التسوية السلمية المختلفة من تجميد أو تأجيل أو انتكاسات.

وفى ضـوء المعركة المحتدمة دائما بين اليمين واليسـار في فرنسا واستعداد الحزب الاشتراكي لخوض الانتخابات الرئاسية، اعتقد البعض- وهم على حق- أن ليونيل جوسـبان الذى يحلم منذ زمن بمقعد قصـر الإليزيـه، قد أعلن بتصـريحاتـه المحابية لإسـرائيل ولعناصـر اللوبى اليهودى ترشيح نفسـه للرئاسـة من إسرائيل!

الموقف الثالث يسبق الموقفين السـابقين بعدة أسـابيع، وبطلته- هذه المرة- كانت السـيدة نيكول فونتين رئيسـة البرلمان الأوربى السابقة التى ألغت لقاء مقررا فى القدس الشرقية مع فيصل الحسينى مسئول ملف القدس فى السلطة الفلسطينية وتركته ينتظرها أكثر من سـاعة فى مقر القنصـلية الفرنسـية ولم تعد عن موقفها إلا بعد أن تدخل الرئيس الفلسـطيني ياسـر عرفات الذى أبلغ رئاسـة الاتحاد الأوربى اسـتياءه ومخالفة السـيدة نيكول فونتين للموقف الأوربى الملتزم بالتعاون مع القدس الشـرقية كأرض تحتلها إسـرائيل ولا تخضع لسيادتها.

صـحيح أن رئيسـة الاتحاد الأوربى عادت وتداركت ما وقعت فيه من خطأ والتقت بفيصـل الحسـينى لكن لا يخفى على أحد- كما يقول (جون ميشـيل ديمون) أمين عام المنظمة البرلمانية لتعاون العربى- الأوربى، أنها لم تفعل ذلك إلا إرضـاء لرغبات إسـرائيل، وبسـبب ضـغوط اللوبى اليهودى نهجت نهجا يتنافس مع مجمل المواقف الأوربية سـواء على مسـتوى القمم أو البرلمانات الوطنية أو المفوضية الأوربية.

وشـيء قريب من هذا الموقف المعادى أو على الأقل المتحامل على العرب، كررته السـيدة نيكول فونتين عندما جددت المغرب رغبتها فى الانضـمام إلى الاتحاد الأوربى، فعلقت فى شبه استياء بقولها: إن انضـمام المغرب إلى الاتحاد الأوربى هو أمر مسـتبعد وغير وارد ثم أضافت: إن المغرب جغرافيا لا يقع فى أوربا، فكيف يتسنى ضمه إليها؟!

وفي الكواليس نسمع هنا وهناك حديثا عن «يهودية» السيدة نيكول فونتين رئيسة البرلمان الأوربى (السابقة) وعن علاقاتها بدوائر المال والإعلام اليهودية فى أوربا.

كل هذه المواقف تؤكد أن اللوبى اليهودى «سره باتع» فى كل مكان!

«الدياسبورا اليهودية» فى فرنسا: دولة داخل دولة!

عندما أبدى الرئيس الفرنسى السابق جاك شيراك تفهما للأوضاع الإنسانية (المأساوية) التى يعيشها الشعب الفلسطيني، بسبب الحظر الإسرائيلى المفروض على المدن الفلسطينية، قامت الدنيا ولم تقعد فى أوساط اللوبى اليهودى فى فرنسا، وخرج كبير حاخامى باريس (جوزيف سيتروك) يعلن أنه يريد مقابلة الرئيس شيراك ليس بصفته رجل دين وإنما بصفته «مواطنا فرنسيا».

وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن الرئيس الفرنسى خفف من لهجته التى اشتم يهود فرنسا فيها شيئا من نقد، خصوصا أنه يعلم أن اللوبى اليهودى يعتبره «محابيا» للفلسطينيين على حساب الدولة العبرية! وكانت مظاهرات قد عمت أنحاء فرنسا ترفع شعارات معادية لشيراك شخصيا ومنها «شيراك إلى السجن»، و «شيراك لن ننسى» فى إشارة أنهم سوف يخذلونه حتما فى صناديق الاقتراع.

والثابت أن رجال السياسة والحكم فى فرنسا يحسبون ألف حساب للجالية اليهودية في فرنسا التي يزيد عددها على ٧٠٠ ألف شخص ويتغلغل أفرادها فى كافة أجهزة صنع القرار، سواء على المستوى المحلي (الداخلي) أو على المستوى الدولي (الخارجي). وتأتي قوة هذا اللوبى- الذى يعتبر الثانى من حيث الحجم والتأثير بعد اللوبى اليهودى فى أمريكا- تأتى من أنه يملك شيئين هما المال، والميديا.

وقد وصــلت تلك القوة إلى حد ذكر معه جاك أتالى أحد أبرز مستشارى الرئيس الفرنسى الراحل فرنسوا ميتران ومؤسس بنك التنمية والتعمير في أوربا (وهو من كبار الشخصيات السياسية والاقتصــادية اليهودية في أوروبا) أن الحكومات الأوربية- وخصــوصـا الحكومات الفرنسـية المتعاقبة- ليســت إلا مجرد «ماريونيت» (عرائس) فى أيدى اليهود.

وفى الواقع، فإن القوة المشـــار إليها تحيط بها الكثير من الحقائق التى تختلط بالأســاطير، والتى توضـــح المناخ العام فى فرنسا، فأتالى يقول فى كتاب بعنوان «اليهود والعالم، والفلوس»: إن سيطرة اليهود على الاقتصــاد هى سر قوتهم، فالتاريخ يذكر أن مشــاريعاً ضـــخمة كادت تتوقف فى فرنســا لولا التمويل اليهودى، ويشير إلى أن نابليون بونابرت كان صاحب الفضل فى تكوين «النواة» الأولى للوبى اليهودى فى فرنســـا عندما قرر إنشــاء مجمع دينى أمنى فى أوائل القرن الــــ١٩ يضــم ممثلى الطوائف اليهودية، مشــيرا إلى أن بونابرت اصــطحب معه بعد عودته من حملته على مصـــر عام ١٧٩٨ أكبر عدد من اليهود لكى يساعدونه فى تحقيق نهضــة فى التجارة (حسبما أسر بذلك أحد أصــــدقائه يوما). كما يذكر أنه فى يوليو ١٨٠٦ عقد وزير الأديان فى الإمبراطورية الفرنسية اجتماعا حضره ١١١ مفوضا من التجار و١٥ من رجال الدين اليهودى جاءوا من كل أنحاء أوروبا لتحديد وتنظيم أمور اليهود داخل الإمبراطورية، وفى هذا الاتجاه صـــدرت «فرمانات حقوق اليهود» التى تســتهدف إنهاء الإهانة وكســـر الجيتو ورفع الشـــارات التى كانت تميزهم عن غيرهم.

*** «كريف» أبرز التجمعات:**

وعلى الرغم من كثرة التجمعات اليهودية فى فرنسا فإن أشهرها وأكثرها قوة ونفاذا، المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية فى فرنسا (كريف) والذى يعتبر الفاترينة السياسية للوبى اليهودى، وترتبطه صلات مباشرة وقوية بقادة الدولة العبرية، ويعتبره بعض المحللين السفارة الحقيقية لإسرائيل لدى باريس لأن رئيسه السابق هنرى هايدنبرج هو فى الأصل محام شهير بالاستئناف الفرنسى، وترتبطه علاقات وطيدة برموز الحكم فى (فرنسا وإسرائيل) على السواء، ولا تكاد تمر مناسبة أو موقف ما، إلا يكون لهذا الرجل «تصريح رنان» يضع كثير من النقاط على الحروف، وقد يحدث أن تكلفه حكومة إسرائيل- وحدث هذا خلال ولاية بنيامين نيتانياهو- ببعض المهام السياسية ولقاء رؤساء وقادة دول بعينها. ويذكر كثيرون أنه قبل عشر سنوات قد تحدث عن إمكانية قيام دولة فلسطينية، لكن بلا جيش أو قوات عسكرية من أى نوع، قبل أن يصبح هذا الحديث متواتراً بدرجات متفاوتة بعد فترة طويلة على ألسنة قادة إسرائيل.

والمعروف أن علاقة اللوبى اليهودى برموز اليسار الاشتراكى هى علاقة «حميمة» بالمقارنة مع علاقاتهم برموز اليمين، فالتاريخ الفرنسى المعاصر يذكر أن يهود فرنسا قد لعبوا دورا رئيسيا فى إبعاد الجنرال ديجول من مقعد الرئاسة فى قصر الإليزيه، عبر تأييد الإصلاحات التى اقترحها فى استفتاء ١٩٦٩، والذى أعقب أحداث مايو الطلابية الشهيرة التى انسحب على أثرها من الحياة السياسية، وكان ذلك رداً من جانب يهود فرنسا على قرار ديجول بمنع تصدير السلاح إلى تل أبيب فى أعقاب حرب ١٩٦٧ باعتبار أنها الدولة التى بدأت بالعدوان. أما اليسار فكان دائما الأقرب إلى هوى وقلوب يهود فرنسا، ودولتهم إسرائيل

فلقد ضـــرب الرئيس ميتران بقرار الحظر المفروض من جانب جامعة الدول العربية عرض الحائط، وغض الطرف عن تعامل الشركات الفرنسية تجاريا مع إسرائيل.

وفى فترة التعايش الثانية بين اليمين واليسـار فى فرنسـا، كان ليونيل جوسبان رئيس الحكومة وقتذاك يتخذ مواقف تتعارض مع مواقف الرئيس الفرنســـى فيما يتعلق بإســـرائيل مما قادهما إلى التصادم أكثر من مرة.

أيا كان الحال، فيهود فرنســـا يرون أن دورهم هو مســـاندة حكومات إســـرائيل فى كل ما تتخذه من قرارات أو توجهات، فقد علق هنرى هايدنبرج الرئيس السـابق للمجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية في فرنسا على الزيارة التى قام بها أرييل شارون لساحة المسـجد الأقصــى والتى تسـبب فى إشـعال الشـرارة الأولى فى الانتفاضــــة بقولـه: إنهـا كـانـت مجرد اختبـار يثبت أن الأمـاكن المقدسة لو أصبحت تحت الحماية الفلسطينية، فهذا معناه أن أمن إسرائيل يُصبح فى خطر حقيقى!

وفى تعليقـه على التعـاطف الـذى كـان أعرب عنـه الرئيس شيراك إزاء الفلسطينيين قال هايدنبرج موجها اللوم إلى شيراك: لقد تصـــرف (الرجل) بطريقة عاطفية فى موقف كان يقتضـــى التعامل معه بدبلوماسية. والمعروف أنه فى الانتخابات الرئاسية الفرنســـية الأخيرة وقف فيها اللوبى اليهودى، موقفا مضـــادا للرئيس الديجولى جاك شيراك، وسـاند بقوة المرشح الاشتراكى ليونيل جوسبان الذى لم يحالفه الحظ رغم ذلك!.

* ليكرا.. بيتار:

ويستند كل ذلك على أرضية قوية داخل فرنسا، فإلى جانب المؤسسات السياسية والاقتصادية اليهودية التى ترتبط بعلاقات وطيدة بالأحزاب الإسرائيلية المختلفة، ولا تتردد عن تقديم الدعم المالى لكثير من التوجهات السياسية داخل إسرائيل وخارجها. هناك منظمات مدنية أشهرها منظمة (ليكرا) التى تهتم بالدفاع عن حقوق المهاجرين والأجانب، ويلعب فيها المحامون اليهود دوراً بالغ الخطورة، وهى ذاتها المنظمة التى تقدم دعاوى «ضد السامية» التى تتفجر بين وقت وآخر بهدف الابتزاز السياسى. ولقد نشطت تحركاتها فى الفترة الأخيرة بعدما تبين أنها حققت مكاسب سياسية ومالية ضخمة من أوروبا، والاتهام المعد سلفا لكل من تختلف معه هو أنه معاد للسامية، مثلما حدث مع المفكر الفرنسى المسلم روجيه جارودى عندما وضع كتاب الأساطير الصهيونية للسياسة الإسرائيلية(*)!.

ثم هناك منظمات موغلة فى تطرفها تمثل الليكود فى فرنسا مثل جماعة «بيتار» ولاديو جوزيف، وعدد من الإذاعات والقنوات الفضائية، والصحف الفرنسية بتمويل يهودى.

* قانون جايسو:

وتأتى بعض جوانب خطورة هذه المسألة من وجود جالية عربية وإسلامية كبيرة فى فرنسا (نحو ٤ ملايين عربى ومسلم)، على نحو يثير احتمال حدوث مواجهات أو صدامات، مثلما حدث عندما احتجت نحو ٢٠ جمعية فرنسية مؤيدة للحقوق العربية على قيام شارون بزيارة لفرنسا بدعوة من جماعة «ليكود فرنسا» ولولا إلغاء الزيارة، وتدخل وزير الداخلية الفرنسى لنزع فتيل الأزمة، لسالت دماء عربية ويهودية على الأراضى الفرنسية.

(*) رفعت نفس المنظمة دعوى قضائية فى منتصف عام ٢٠٠٢ ضد صحيفة الأهرام- نظرتها محكمة باريس- بسبب مقال للكاتب الصحفى عادل حمودة رأت أنه يحض على معاداة السامية!

يبقى أن نذكر أن الدياسبورا اليهودية فى فرنسا هى من النوع المتوحش الذى يسـيطر كالأخطبوط على مواقع حسـاسـة فى أجهزة الدولة، كما يملكون أسهم معظم شركات الميديا، فإن يهود فرنسـا هم- فى حقيقة الأمر- دولة داخل دولة، ولكنهم «دولة شـمولية» توفرت لها كافة أنواع الحصـانة بحيث لا يجرؤ أحد على الاختلاف معها، أو مراجعة ما يصـدر عنها- ولو مراجعة علمية ومنهجية- فقانون جايسو الفرنسى الشهير يعاقب بالسجن والغرامة كل من يحاول أن ينبش فى تاريخ اليهود، أو يشكك فى أساطير بعينها فضـلا عن أن سـيف الاتهام «بمعاداة السـامية» مسلط على كل الرؤوس.

الهيمنة الثقافية الأمريكية إلى زوال

.. ليس من شـك أن المشـهد الثقافى الغربى (وتحديدا الأوروبى) إزاء أحداث ١١ سـبتمبر قد تغير كثيرا إلي حد يجعلنا نقرر باطمئنان أنه «انتقل بالفعل من النقيض إلى النقيض». فكلنا يذكر أنـه فى اليوم التـالي لوقوع هجمات على واشـنطن ونيويورك صـدرت صـحيفة لوموند الفرنسـية الشـهيرة بمقالة علي صـدر صفحتها الأولى لمدير تحريرها السابق (جون مارى كولومبانى) تقول: «كلنـا أمريكيون» يؤكـد فيهـا أن الأمريكيين والأوروبيين يقفون فى خندق واحد، وان الإرهاب يستهدفهم جميعا بلا استثناء.

وقد أثارت هذه المقالة لغطا فى الأوسـاط الثقافية والفكرية فارتفعت أصوات تعارض، وآخرى تتهم باعتبار أن «أمريكا شـيء وأوروبا شـيء أخر» وظل نهر المعارضـة يتدفق حتى أصـبح اليوم – بعد مرور عام على أحداث سـبتمبر يمثل تيارا عريضـا يفرض- ربما بالقوة- جملة من

«المراجعـات» وإعـادة النظر فـي «المفـاهيم» التـي انطلقـت من جحورها كالثعابين المتمردة تلتهم كل شيء أمامها لتبقى شيئا واحدا هو انفراد أمريكا بالقرار العالمى! فها هو المفكر اللغوى الأمريكى الشـهير نـاعوم تشـومسكي يؤكد أن التعريف الدقيق للإرهاب يجعل الولايات المتحدة على رأس الدول الإرهابية فى العالم.

ويقول أن الإدارة الأمريكيـة تتعمـد خلط الأوراق بـإطلاق مسـميات كثيرة بهدف إخفاء الجرائم التى ترتكبها في حق الشـعوب فهى عندما تدخلت بجيوشـها فى الخليج تسـمى ذلك «حربا» أما تفجيراتها التى أشـعلت صـربيا فتسـميها تدخلا إنسـانيا وتزعم أن هجومها على نيكاراجوا (الذى حصد عشرات الآلاف) ليس جريمة وعنـدمـا هم مجلس الأمن بـإصـدار قرار يـدينهـا «كـان الفيتو الأمريكى» له بالمرصاد!

ويتفقد مفكر أخر هو الفرنسي باسكال يونيفاس مفهوم «صدام الحضارات»، الذى راج وانتشر بعد المقالة الشهيرة التى كتبها صموئيل هنتنجتون فى أوائل التسعينات ويقول أن رجال السياسة والمعلقين عمدوا بعد أحداث ١١ سبتمبر إلى ربط هذا المفهوم بسوء الفهم المتبادل بين الغرب من جانب والعالم العربى والإسلامى من جانب آخر، بحيث بات راسخا فى الأذهان أن حديثاً عن صدام الحضارات لا يعنى إلا شيئا واحدا هو صدام الغرب بالإسلام!

ويؤكد الرجل خطأ ذلك ويرى أن الإسلام (وشعوبه كان رافدا إنسانيا من روافد بناء الحضارة الإنسانية.

ويذهب إلى هذا الخلط المتعمد قد صاحب الحديث الذى انتشر عقب أحداث ١١ سبتمبر عن «حروب الأديان» ويقول أن ترويج مصطلحات مثل «حرب صليبية» أو «نداءات الحرب المقدسة» قد غذى شائعة الخصومة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية، وهذا غير صحيح على كل حال.

ويؤكد أن أهم ما كشفته أحداث ١١ سبتمبر هو أن أحدا ليس فى مأمن من الإرهاب، وها هى الولايات المتحدة أقوى دولة فى العالم، والتى تستأثر وحدها بنحو ٤٠% من إجمالى الإنفاق العسكرى العالمى كانت ضحية لعمليات إرهابية غير مسبوقة فى تاريخها.

وفى إطار حملة المراجعات التى يقوم بها العقل الغربى بشكل عام بمناسبة مرور عام على أحداث ١١ سبتمبر يتحدث المفكر الفرنسى انياسبور امونية (مدير تحرير السابق لوموند دييلوماتيك) عن مصطلح فضفاض فمنذ قرنين من الزمان كان الإرهابى هو كل من يستعمل «بحق أو بغير حق»- العنف لإحداث تغيير فى النظام السياسى ولذلك أصبح عدد من قدامى الإرهابيين- بهذا المعنى- رجال دولة مثل مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل ونيلسون مانديلا رئيس جنوب أفريقيا السابق..

لكن مع الحرب العالمية التى تدور حاليا ضد الإرهاب والدعاية المصاحبة لها، أصبح مصطلح«إرهابى» يعنى كل ما هو«إسلامى» وهذا خطأ كبير لأن هناك إرهابا آخر- غير إسلامى- يحدث فى مناطق كثيرة في العالم (فى أسبانيا وكولومبيا، وسريلانكا، وإيرلندا الشمالية، وكورسيكا).

بمعني أخر: أن الحرب ضد الإرهاب والتى توصف بأنها «بلا نهاية» أضرت بالحرية والأحرار فمرحلة العولمة الليبرالية التى تتميز بازدهار النظام الديمقراطى، وذيوع دولة الحقوق، وتمجيد حقوق الإنسان، قد تغيرت ملامحها بعد أحداث ١١ سبتمبر، وحدثت قطيعة معها، فباسم «الحرب العادلة» ضد الإرهاب دخلت هذه الأفكار الكريمة إلى عالم النسيان.

وفى الوقت نفسه يسخر نفر من المفكرين الأمريكيين من انفراد الرئيس جورج دبليو بوش بالقرارات، ويرون أن المناخ السياسى أصبح شموليا بعد أحداث ١١ سبتمبر والدليل على ذلك أن الرئيس بوش أعلن الحرب على الدول التى أطلق عليها اسم«محور الشر» وهى إيران والعراق، وكوريا الشمالية على الرغم من أنه لم يثبت حتى الآن تورط أى دولة منها فى أحداث ١١ سبتمبر وتذكر صحيفة لوموند دبلوماتيك أن إدارة بوش طردت صحفيا بالتليفزيون من عمله لأنه انتقد السياسة الأمريكية وقال: إنها هى سبب ظهور الإرهاب، وأنها تساهم فى موجة العداء المتنامية ضد«أمريكا» كما لقى صحفى آخر نفس المصير لأنه وصف الرئيس بوش بالطفل الهلوع الذى أخذ ينتقل مذعورا من مكان إلى أخر عند سماعه بنبأ الاعتداءات على البرجين والبنتاجون!

وتقول الصحفية: أن هذه الإجراءات تتنافى مع أبسط قواعد الليبرالية الغربية التي يتشدق الأمريكيون بأنهم التجسيد الحقيقي لها في الفكر والثقافة والحياة وعلى صعيد أخر من الوزن الثقيل يقول مفكر اخر هو ريجيس ديبريه أن كراهية شعوب الأرض لأمريكا ربما يكون السبب المباشر لوقوع هذه الأحداث الدامية التي راح ضحيتها نحو خمسة آلاف أمريكي، ويقول أن الهيمنة الثقافية الأمريكية أشبه بالدودة التى تنخر عظام الثقافات الأخرى.

ويؤكد ديبريه أنه من الخطأ الركون إلى مقولة أن العالم لا يوجد به سوى قومية واحدة مسموح بها- هى القومية الأمريكية- وشعب واحد عظيم يمثل وحدة النوع البشرى هو الشعب الأمريكى.

ويلفت ديبريه الاهتمام إلي أن قضية الهيمنة يعمل من أجلها كل رؤساء أمريكا منذ عشرات السنين، فليس مصادفة أن يطالب هؤلاء الرؤساء منذ عام ١٩٤٧ (في إطار الاتفاقات الثنائية) بأن يخصص، البلدان التى أبرمت معها اتفاقيات تعاون، حصة معينة للأفلام الأمريكية.

ويقول مندهشاً: ألم تهدد أمريكا بالأمس القريب تركيا باتخاذ إجراءات قاسية ضدها إن لم تخصص هذه الأخيرة ربع أسواقها للأفلام الأمريكية؟!.

ويحذر ريجيس ديبريه من الهيمنة الثقافية الأمريكية التى ستكون عواقبها الوخيمة أبشع مما نتصور فيقول: أن الثقافة الأحادية التي تصبغ الخيال بلون واحد تهيئ لنا مستقبلا بائسا فالقمع الثقافى لثلاثة أرباع العالم، سيفسح المجال فى القرن الحادى والعشرين إلى ظهور متمردين أكثر حزما وعدد مما كانت عليه البروليتاريا الاقتصادية فى القرن التاسع عشر.

ويشـدد ديبريه أخيرا على أن نرفع جميعا عقيرتنا لنقول لا لتفاهة الأغنياء المستبدين التى تمثلها بقضها وقضيضها السطوة الأمريكية يبقى أخيرا أن نذكر أن أحداث ١١ سبتمبر كشفت ضمن ما كشفت الجانب التراجيدى (المأسـاوى) للعولمة، فلا أحد فى مأمن من الإرهاب (الغنى والقوى مثل الفقيرة والضـعيف) كما أن المفاهيم المغلوطة سـوف يفتضـح أمرها إن أجلا أو عاجلا.. واليوم إذا كانت السطوة للإمبراطورية الأمريكية- مثلما كانت السطوة للإمبراطورية الرومـانيـة فى القرن الأول.فـالمحقق أنهـا سـتزول حتمـا كبـاقى الإمبراطوريات.. فقط علينا.. ما يقول ريجيس ديبريه- أن نعمل على ألا تحطم أنقاضـها ثرواتنا الإبداعية الخلاقة، فى الأدب والثقافة والفكر..

فهرس الكتاب

